459

عبد الوهاب مطاوع

أعمال لم تنشر

بعد مغيب القمر

الطبعة الرابعة

A.M.



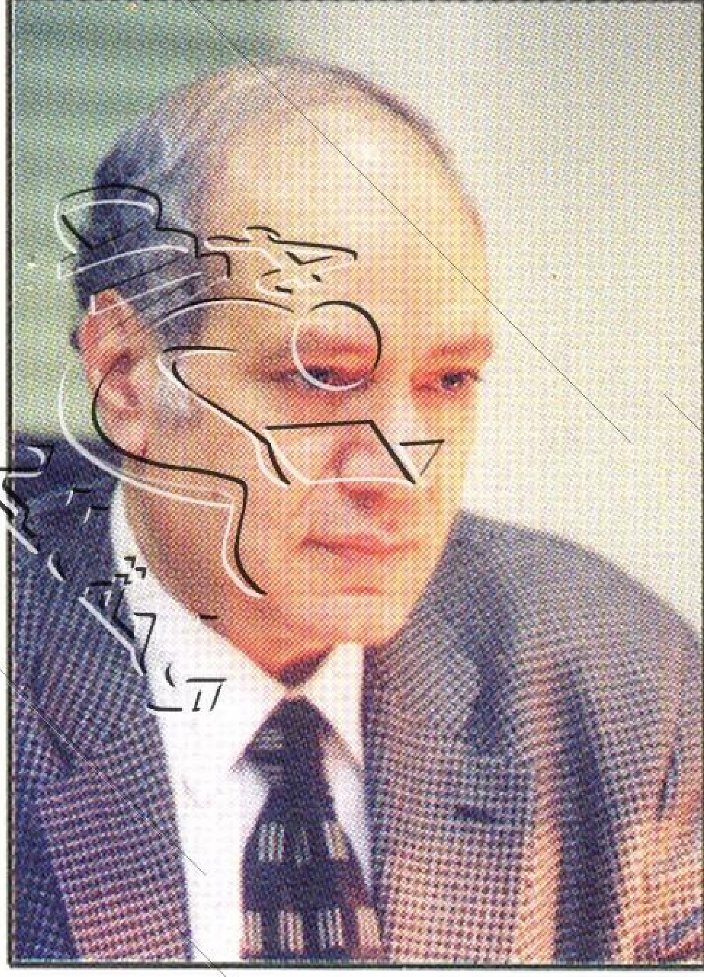
الدار المصرية اللبنانية

Wed.
6/1/2016

بعد مغيب القمر

★ الحياة تجارب، وتجارب الآخرين قد تعلمنا أحيانًا أكثر مما نتعلم من تجاربنا الشخصية.

★ إيمانًا من الدار المصرية اللبنانية بأهمية التجربة الإنسانية فى الواقع باعتبارها خبرة مضافة إلى خبراتنا، أرادت الدار أن تشرك قراءها فى الاطلاع على هذه المجموعة من التجارب الإنسانية العميقة التى اختارها بوعى وذكاء الكاتب الراحل عبد الوهاب مطاوع الذى كان يرد دائمًا أنه لايستحق الحياة من عاش لنفسه فقط . فنتجول معه هنا بين قطاعات واسعة من الواقع المصرى بين الشباب والحب وانتصار قيمة الإيمان بالحب النَّقىِّ، وقضايا الزواج وأزمة الإسكان، حيث تحتل هموم الشباب الغالبية العظمى من هذه الرسائل، وكيف أن الشباب يشعرون بالاغتراب فى واقعهم فى عصر ينكفئ فيه كل إنسان على ذاته - غالبًا - وتتسلل وتنتشر قيم الفردية والذاتية وعلاقات الغابة إلى حياتنا.



★عبد الوهاب مطاوع ١٩٤٠-٢٠٠٤

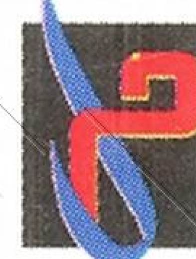
★ شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.

★ حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.

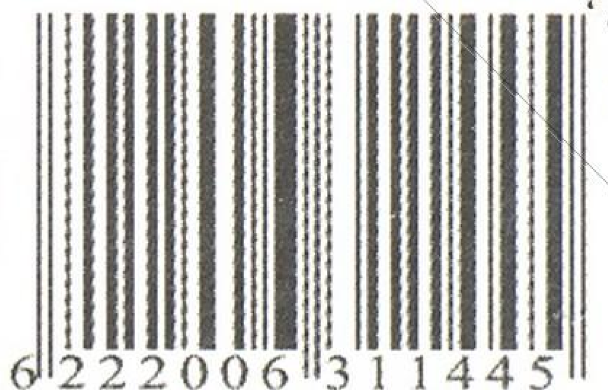
★ كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢. ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.

★ صدر له ٥٣ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.

★ صدرت له ثلاث مجموعات قصصية هى: (أماكن فى القلب) (ولاتنسنى) ، (والحب فوق البلاط).



الدار المصرية اللبنانية


6 222006 311445

عبد الوهاب مطاوع

أعمال لم تنشر

بعد مغيب القمر

الدار المصرية اللبنانية




بسم الله الرحمن الرحيم







مقدمة

تستغرقنى أحيانًا قراءة رسائل بريد الجمعة وتشدنى إلى عالمها الغريب.. حتى لتمضى الساعات الطويلة وأنا غارق فيها فلا أحس بانقضاء الوقت إلا من تباشير نور الصباح تتسلل على استحياء من نافذة غرفة مكتبى.

فأكتشف لحظتها أن ليلة أخرى من العمر قد مضت مع هموم البشر.. ولم تنته بعد الهموم، ولقد اكتسبت من طول المعايشة عادة غريبة لا أعرف تفسيرًا لها.. هى تخيل العالم الذى تروى لى عنه الرسالة.. حتى أكاد "أرى" أبطاله.. "يتحركون" أمام مخيلتى كأنهم أصدقاء أعزاء أعرفهم على البعد ومن بين الأصدقاء الذين عشت معهم فى عالمهم أصحاب هذه الرسائل.

أكتب إليك هذه الرسالة لأسألك سؤالاً غريبًا هو: هل الفقر ملازم للاحترام؟ أو هل الفقر والاحترام وجهان لعملة واحدة؟ إن قانون العاملين يقرر أنى أشغل الدرجة الأولى الإدارية، ومرشح للترقية إلى درجة المدير العام منذ مدة، وهى من درجات الوظائف العليا. وأن راتبى مائة وخمسون جنيهًا، وفى حالة الترقية سيصعد راتبى علوًا بمبلغ ستة جنيهات شهريًا، وأنا اجتماعيًا متزوج ولدى بنت وولدان والبنت فى الثانوية العامة والولد الأكبر بالجامعة والثانى بالمدارس الإبتدائية، ولقد واجهت وزوجتى منذ الأسبوع الأول لزواجنا حياة قاسية بسبب الدخل المحدود للزوج فقط، واتفقنا على خطة عمل لكلينا حتى يظل للأسرة الوليدة احترامها ووقارها بين الأهل والأصدقاء.

والتزمت الزوجة بتنفيذ دورها لأكثر من عشرين عامًا فى تصميم وتضحية وصبر واحتمال، ففى الأسبوع الأول باعت مصوغاتها وسلمت مدخراتها لى، وأدارات منزلها بأسلوب خرافى. فمثلاً فى مجال التغذية تعرف ما الذى نشعر به ومتى وكيف تطهوه وقد تضيف إلى ما تبقى منه بعضًا من صنف آخر فيصير صنفًا ثالثًا بإذن الله حلو المذاق لذيذ الطعم.

وفى مجال الملابس أدارت الأمر بإحساسها الغريزى وتحملها للمسئولية، إن الصيانة تطيل عمر الشىء، وذلك بالغسيل والحفظ والكى وطريقة اللبس ومواعيده، واستغلال ما تبقى من بعض الملبوسات للاستفادة منها فى ألوان شتى، حتى أننى أبدو دائمًا فى حالة نظيفة وأنيقة تضفى علىَّ هيبة واحترامًا. وكذلك الوضع بالنسبة لمذاكرة الأولاد والمحافظة على حقائبهم وكراريسهم وأقلامهم والاستفادة من الصفحات التى لم تستغل لتصبح كراسات جديدة وهكذا.

وأشياء كثيرة لا يسمح المجال بحصرها، وقد تبدو تافهة وليست ذات شأن أو قيمة ملموسة ولكنها ـ لا أقول وفرت لأنه ليس هناك أصل للتوفير منه وإنما القول إنها أزاحت عبئًا كبيرًا عن كاهل الأسرة المحدودة للغاية فضلاً عن التعوّد على النظام، أما أنا فنظرًا لأنَّى ربَّان هذه السفينة، ولأن دخلى محدود للغاية ولايفى أصلاً بمتطلبات الأسرة الضرورية. ولأننى احترم نفسى إلى درجة مؤلمة فقد التزمت بدورى بقسوة وبدوت محافظًا على مظهرى ووقارى واحترامى لنفسى وعفة لسانى ونظافة يدى. وأخذت أتدرج فى المناصب والترقيات حتى اكتسبت ثقة وتقدير زملائى وحرمت على نفسى الكثير. فحرّمت على نفسى مثلاً ركوب المواصلات إلا فيما لا يحتمل، وحرمت على نفسى تناول الأكل والمشروبات خارج المنزل إلا فيما قد

يشكل إهانة، وابتعدت عن مجالس الأحباب والأصدقاء وواجبات المجاملات التى قد تشكل غرمًا لا أحتمله، ورغم ذلك فأنا مؤتمن على الأموال والأسرار فيجيئنى من يسلمنى مبلغًا من المال ويأتمننى على توزيعه على فقراء الهيئة التى أعمل بها. وفى شهر رمضان الماضى مثلاً أودع فى يدى أكثر من مائتى جنيه لأتولى توزيعها. والله وحده يعلم كم كنت فى أشد الحاجة إلى جزء بسيط من هذا المبلغ حتى يكون العيد عيدًا.

لن أطيل عليك ولكن وبإيجاز شديد أنت أمام أسرة استطاعت بصلابتها وصمودها وقناعتها أن تحيط نفسها بجدار صلب من الاحترام والوقار. ولكنك ـ يا سيدى ـ لو نفذت من هذا الجدار لوجدت أسرة منهوكة القوى تعانى بشدة جفاف الحياة وقحط المعيشة وضيق اليد والحرمان والانزواء والانغلاق وانفصام الشخصية والصبر المؤلم وماذا أقول؟ هل أقول إن "لحمة" الجمعية ضيف ثقيل وممل لا يريد أن يبارحنا حتى فى الأعياد والمواسم المفضلة عند الله؟! هل أقول إن كثيرًا من أصناف الفاكهة تشرق شمسها وتنضج وتسر الناظرين ثم تذبل وتغرب دون التعامل أو الاقتراب منها!!

هل أقول إن هذه الأسرة لا تعرف عن السينما والمسارح والمصايف والبلاجات إلا أسماءها، تطبيقًا للمحكمة التى تقول العلم بالشىء

أكثر من ذلك، لكنك لن تسألنى ولماذا لم تسع فى ربوع المعمورة لزيادة دخلك! فأقول لك إننى لم أترك إعلانًا فى جريدة إلا وتقدمت له ولم أترك صديقًا أو قريبًا مسافرًا للخارج إلا ورجوته ودعوت الله أن يكون نافذة أمل لهذه الأسرة الصامدة. ولكن وعود ووعود ووعود ولا شيء، وتسألنى ماذا تريد؟ فأقول لله الأمر من قبل ومن بعد. ولكنى أحس حاليًا بتمزق شديد، وكأنه معول هدم يهدم كيانى أتمزق لأنى كلما نظرت إلى يدى زوجتى ـ المخلصة والوفية ـ العاريتين من مصوغاتها وأرى نضارة صحتها تتوارى خلف قسوة الحياة والحرمان، أحس بحزن شديد يؤلمنى ليل نهار، وأتمزق لأنى أدرك أن أولادى لم ينعموا فى ظلى بما يتمتع به أقرانهم. وكلما تذكرت أنى كنت أقلب الحقائق وألوى عنق الأمور أمامهم إذا كان ما يطلبونه يشكل غرمًا ماديًا. وأتمزق لأنى.. وأنا المحترم صفة وحقيقة والمرشح للمدير العام عن جدارة أعيش حالة انزواء وانغلاق وهروب من الناس والحياة. أتوارى من الجهلاء وأرباع وأنصاف المتعلمين وغيرهم ممن سافروا إلى الخارج ولا يتكلمون إلا عن الأراضى والسيارات والودائع والبنوك وخلافه. وأتمزق لأن ابنتى كانت تطلب دروسًا فى بعض مواد الثانوية العامة وبحسبة بسيطة وبالسعر السائد فى السوق وجدت أن راتبى لا يكفى ثلاثة من المدرسين وتسألنى مرة أخرى ماذا تريد؟!

فأقول.. رفقًا بى فإن مجرد التنفيس والكتابة قد خفف من حدة المعاناة كما يقول أعضاء المجموعة الاقتصادية، كما إنى رفعت الغطاء قليلاً ولأول مرة فى حياتى فى جلسة صفاء لكى تستريح النفس الممزقة.. وهذا هدف أساسى من هذه الرسالة الخجول.. وحتى لا تضعنى الأيام فى قفص الاتهام يومًا بدعوى أننى كان يجب أن أتحرك حركة أوسع من ذلك بدلاً من الاستسلام كتبت هذه السطور لك فى خجل لأقول ـ وكنت لا أحب أن أقول ذلك ـ ليتك تدعو الله معى أن أوفق فى الحصول على عمل فى الداخل بعد الظهر لكى تتوهج شعلة الحياة وأسدد ديونى. وأدعو السيدة رئيسة التليفزيون إلى أن تزيد من الزمن المخصص للبرامج التعليمية بما يعود بالفائدة على أبناء أمثالى ممن لا يقدرون على نفقات الدروس الخصوصية وأعود إلى سؤالى الذى ما زال مطروحًا وصدق الله العظيم "فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون".

إننى لا أعرف بصدق إذا كان الفقر ملازمًا للاحترام كما تقول أم لا؟ لكننى أعرف فقط على وجه التحديد أنه لا علاقة البتة بين المال وبين الاحترام. فالاحترام يرتبط أساسًا بأخلاقيات الشخص وسلوكياته وقيمته ودينه. وإذا توافرت هذه المعايير فى أى شخص استحق احترام الآخرين بجدارة سواء أكان غنيًا أم فقيرًا. وكثيرًا ما رأينا أشخاصًا بسطاء يثيرون فى النفس مشاعر التقدير والاحترام والإعجاب بفهمهم السليم للحياة وسلوكياتهم وقيمهم الأخلاقية، وبطهارة أيديهم وبكفاحهم المجيد من أجل الأسرة والأبناء، وبعطائهم المخلص للحياة والعمل ولخدمة الآخرين، وكثيرًا أيضًا ما رأينا أشخاصًا متخمين بالمال والثراء تثير شخصياتهم فى النفس التقزز. ولا يحلمون بذرة من احترام أبسط الناس. فالمسألة أذن ترتبط بالشخصية لا بمحفظة النقود أو بحساب البنك أو نوع السيارة أو عدد السيارات. ومن سمات المصريين العجيبة والفريدة فى الوقت نفسه أنهم فى أعماقهم لا يحترمون الإنسان لماله فقط إذا كان سيىء

الخلق أو وقحًا مستهترًا أو سليط اللسان أو متعجرفًا متكبرًا، أو إذا كان المال وحده هو كل مميزاته أو ميزته الوحيدة بغير خلق كريم أو شمائل طيبة، ولا أظن أن هناك شعبًا آخر قد صك مثل هذه العبارة الفريدة التى يعبر بها عن احتقاره لمثل هذا النموذج حين يقول عن شخص ما أنه ليس سوى "حذاء فلوس"، فهل فكرت يومًا فى دلالة هذا التعبير العجيب عن أن المال وحده ليس مبررًا كافيًا لاحترام أحد. إذا لم تكن له صفات ومميزات أخرى تثير الاحترام؟ وهل لاحظ أحد عمق الاحتقار فى اختيار كلمة الحذاء بالذات لوصف مثل هذا النموذج بدلاً من اختيار كلمة أخرى كحافظة نقود أو خزينة نقود؟

إننى لا أريد أن أطيل كثيرًا فى هذه النقطة لأننى كتبت فيها مرارًا، ولأنها من عقائد المصريين الراسخة التى لا تحتمل النقاش.. لذلك سأتجاوزها سريعًا لأقول لك إن حياتك وكفاحك المجيد وكفاح زوجتك معك وعطاءها المخلص لأسرتك. هى حكاية كل أسرة شريفة محدودة الرزق فى مجتمعنا كما أن آلامك النفسية أيضًا هى آلام رب كل أسرة يواجه مثل ظروفك مع صعوبة الحياة وتكاليف الأبناء والتعليم. والأسباب معروفة وقد "قتلت" بحثا ودرسًا فلا تبقى لنا سوى الاجتهادات الفردية للتخفيف من آلام الآخرين قدر الجهد

وقدر الاستطاعة، وإن كانت ليست حلاً لمشكلة كما هو معروف. فاتصل بى يا سيدى لعل قراء البريد يستطيعون معاونتك فى إيجاد فرصة عمل إضافية لك تخفف من بعض متاعبك وهذا هو أضعف الإيمان.. والسلام.



أكتـب لك لعل فى البوح تخفيفًا لى مما أحس به من آلام...

أنا يا سيدى مدرس بالمرحلة الابتدائية عمرى خمسة وأربعون عامًا ومتزوج منذ عشرين عامًا. وقد رزقت بطفلة فى بداية سنوات الزواج لم تمهلها الأيام طويلاً فاختارها الله بعد شهرين من ميلادها. وبعد ذلك طفت بزوجتى على عيادات الأطباء أملاً فى أن ننجب طفلا بلا جدوى. إلى أن أصيبت زوجتى بما شخصه الأطباء بمرض "الروماتويد" اللعين فتحولت من البحث عن الإنجاب إلى البحث عن علاج ودواء لزوجتـى الحبيبة شريكة رحلة العمر، وانفقت كل ما كنت أدخره، بل ومددت يدى للناس فاقترضت وحاصرتنى الديون. وكنت راضيًا بقضاء الله محتملاً له. ورغم ذلك لم تكن حياتى خالية من السعادة، فأنا سعيد مع زوجتى الطيبة - ومـوفق جدًا فى عملى - ومحبوب جدًا من تلاميذى، وكنت سعـيدًا سعادة لا توصف بحبى لتلاميذى وحبهم لى، هؤلاء الملائكـة الأطهـار الذيـن يمـدون أيديـهم لى بحماس كل صباح ليصافحـونى. ويشب بعضهم على أقدامهم ليقبلونى وأقبلهم.

والحق أني وجدت فيهم تعويضًا لى عما حرمتنى منه الطبيعة. فأفرغت كل عاطفتى فيهم وحصدت ثمار ذلك حبًا واحترامًا من التلاميذ و"فرحة" تطل فى عيونهم حين يروننى. وكنت أعاملهم بحب الأب وحزم المعلم فيمدوننى بسلام نفسى لا حدود له. لكن دوام الحل من المحال.. فلقد بدأت نفسى تتململ من كثرة المعاناة. فأصبحت ذات يوم وأنا لا أطيق تلاميذى.. ولا أى طفل آخر.. وتعجبت من نفسى ولهذا الإحساس الغريب.. وقاومته كثيرًا فغلبته أحيانًا وغلبنى فى أحيان أخرى.. ولكن يبدو أن آثار هذه المعركة قد انعكست علىَّ وأحس بها الأطفال من تلاميذى فابتعدوا عنى. وماتت البسمة على وجوههم حين يروننى.. وصار ما بينى وبينهم لا ينبىء بخير أبدًا.. إلى أن حدث ذات يوم مالم أتوقعه أبدًا.. فلقد أخطأ تلميذ من تلاميذى خطأ بسيطًا كثيرًا ما قبلته وصوبته قبل ذلك بغير انفعال.. فوجدت نفسى بغير أن أشعر أمسك به وانهال عليه ضربًا وركلاً بقسوة شديدة وأنا محموم لا أدرى ماذا أفعل؟ وإذا بدموع الصغار فى الفصل تشدننى فأفيق وأنا فى ذهول مما حدث.. فلقد بكى معظم تلاميذ الفصل ليس فقط على زميلهم وإنما أيضًا على معلمهم الذى لم يتعودوا منه هذه القسوة، وتمالكت نفسى بعد حين فعالجت الأمر بهدوء مصطنع مع أبنائى ثم مع ولى الأمر بعد ذلك.

وفى اليوم التالى حصلت على أجازة مرضية وسافرت بعيدًا لعلى أنسى هذا الموضوع. وعدت للمدرسة بعد فترة وأنا وجل مما سوف تكون عليه مشاعر التلاميذ تجاهى. فإذا بالتلاميذ يلتفون حولى ويستقبلوننى كأنهم عاتبون على غيابى عنهم. يالبراءة قلوب الأطفال!!

لقد كان هذا الاستقبال وحده كفيلاً بأن يطهرنى من آلامى.. لكن ما حدث كان غير ذلك فلقد ساءت حالتى عما كنت عليه قبل السفر وارتكبت نفس الخطأ مع تلميذ آخر.. بنفس القسوة ونفس الوحشية.. ثم مع تلميذ ثالث ورابع وخامس إلخ، وكان القسوة قد امتزجت بدمى! ثم حملتنى قدماى ذات يوم إلى أحد الأطباء النفسيين وشرحت له ما أعانى، وبعد عدة جلسات وبعض العقاقير تطور الأمر إلى الأسوأ فشكوت للطبيب ذلك فأفزعنى بأمر لم أكن أتوقعه إذا قال لى: تزوج.. فلابد من طفل يناديك بيا أبى.. وليس هناك حل لمشكلتك غير ذلك، فذهلت هل من المعقول أن أتزوج بعد هذا العمر وبعد هذه العشرة الطويلة مع زوجتى الحبيبة؟

زادت حيرتى.. وكدت أجن.. وكأن المصائب تأبى أن تأتى فرادى فأصبت ببعض الأمراض.. وهجرتنى زوجتى لذلك وأصبحت وحيدًا منذ ما يقرب من عام.. وما إن انتهى العام الدراسى بخيره

وشره حتى راجعت نفسى فيما حدث وقررت أن أكتب لك لعلى أسمع رأيًا نافعًا أعمل به فى حل مشكلتى مع تلاميذى الصغار إن شاء الله... وأرجو أن تولى مشكلتى هذه بعضًا من اهتمامكم قبل بدء العام الدراسى الجديد لكى لا تتفاقم المشكلة بإذن الله.



ولكاتب هذه الرسالة أقول

أنت يا صديقى فى محنة شديدة.. تستدعى أن تواجه نفسك بصراحة وأن تتلمس علاج الأسباب... إنك تعانى من حالة "سادية" واضحة.. وميل أوضح للقسوة.. وهذه السادية سوف تقودك إلى مصير سيىء إن لم تتدارك الأمر بالعلاج النفسى المنتظم الطويل من الآن.. وإن لم تغالب نفسك لتردها عما تسوقك إليه مرغمًا.. ومن المؤسف إن مدارسنا لا تعرف هذه الاختبارات النفسية التى يخضع لها العاملون فى مجال التدريس والمتعاملين مع البشر والأطفال فى المجالات المختلفة فى الدول المتقدمة. فلذلك فإنى لم أعجب كثيرًا لتهوّرك وارتكابك أكثر من حادث قسوة ضد تلاميذ أبرياء يحبونك، ويحترمونك لأن كل إنسان معرض للمرض النفسى، وإنما عجبت أشد العجب من أن تتكرّر حوادث القسوة هذه منك مع رابع وخامس إلخ، بغير أن يستلفت ذلك أنظار أحد من المسئولين عن المدرسة، إلى أنهم أمام حالة مرضية ينبغى حماية الأطفال منها. وهذه هى الكارثة الحقيقية والحق أننى لا أعرف إذا كان الحل الذى يطرحه

الطبيب النفسى سوف يقدم الحل المناسب لمشكلتك أم لا؟ ولعله كذلك فى ضوء علمه وتجاربه.. لكن ما أعرفه هو أنك لابد أن تبتعد عن مجال التدريس ومجال التعامل مع الأطفال وأنت تعانى من هذه الحالة المرضية الواضحة. فلا ذنب للأطفال الأبرياء فى ظروفك الخاصة ولا فى مرض زوجتك وحرمانكما من الإنجاب... ولا ذنب لهم ولا جريرة فى هجر زوجتك لك بعد تدهورك إلى حضيض القسوة العقلية بالتأكيد معها. ولعلها تحملت منك أكثر مما تحمَّل هؤلاء الأبرياء. والحق إنك حاسبت من لا دخل لهم فى ظروفك، وكان الأحرى بك أن يتحول شوقك إلى الإنجاب إلى حب للأطفال الذين أحبوك واحترموك فتتسامى بذلك عاطفتك الشخصية إلى أرقى مراتب الحس والشعور، لكن فعلت العكس. وليس من العدل أن يدفع الأبرياء ثمن متاعبك النفسية فاطلب نقلك يا صديقى وعلى الفور من مجال التدريس أولاً ولو مؤقتًا. ثم أفعل بعد ذلك ما تراه فى صالحك. وإذا أردت نصيحتى فإنى أنصحك بالعلاج النفسى السليم وأستطيع أن أعاونك فى هذا المجال كما أنصحك باسترضاء زوجتك شريكة العمر ورفيقة حياتك، وبالعودة لها لأنك فيما أتصور لن تجد سعادتك مع أخرى ولن تجد من هى على استعداد لتحمل معاشرتك،

كما تحملتك هذه السيدة الصغيرة إلى أن فاض بها فهجرتك ولا شك إنها قد عانت معك الكثير فى الفترة الأخيرة، بعد أن تفاقمت لديك حالة الاندفاع والتلذذ بالقسوة ضد الأبرياء. أعانك الله على نفسك مع تمنياتى لك بالشفاء العاجل إن شاء الله.



أنا شاب فى الثانية والثلاثين من عمرى... أعمل فى إحدى شركات القطاع العام.. ومشكلتى يا سيدى تتلخص فى أننى بعد تخرجى فى الكلية وأداء واجب الوطن.. عملت فى تلك الشركة وحصلت على أجازة بدون راتب للعمل فى إحدى دول الخليج.. وبعد نهاية السنة الأولى من العمل فى الخارج كنت أستعد للنزول إلى مصر لقضاء أجازتى السنوية.. فوصلنى فجأة نبأ وفاة الوالدة الحبيبة والذى وقع على كالصاعقة.. وكان لابد من العودة على الفور.. علمًا بأن لى شقيقين أكبر منى يعملان منذ سنين طويلة فى نفس هذه الدولة.. ولم يبد أيهما الرغبة فى العودة.. تسألنى وما الذى أجبرك على العودة.. فأقول لك إنه الوالد.. الذى أصبح يعيش بمفرده فى المنزل ولم أشأ أن أتركه وحيدًا وعدت.. وكان لابد من البحث عن زوجة لاحتياجنا الشديد إليها أنا والوالد بعد رحيل الوالدة.. ووجدتها إنسانة خريجة كلية التجارة وكانت تؤدى الخدمة العامة فى ذلك الوقت.. وبارك الوالد زواجنا وعشت وزوجتى مع والدى فى شقة الأسرة.. وسارت السفينة فى هدوء وسلام بقدر الإمكان والزوجة تقوم بخدمتى وخدمة الوالد فى الوقت نفسه من ملبس وطهو وخلافه.. وكان يمكن أن تمضى حياتنا فى يسر وسهولة لولا تدخل الوالد فى كل كبيرة

وصغيرة فى حياتنا... بل وفى خصوصياتنا.. فإذا خرجنا سألنا إلى أين؟ وإذا عدنا ولم يكن موجودًا عند خروجنا يفتح لنا محضرًا.. كنتم فين؟ "وهو كل يوم خروج"؟ وإذا وضعت شيئًا يمينًا يضعه هو فى الشمال... وهكذا.. إذا حضر أحد أفراد أسرتها يتضايق ولا يهمس بكلمة واحدة.. ولا أصف مدى الحرج الذى أكون فيه.. وأنا أضغط على زوجتى لكى لا تتكلم وتشكو.. وأقول لها دائمًا إنه رجل كبير ويجب علينا تحمله.. وكان من نتيجة هذا الضغط النفسى والزعل المستمر أن أصيبت زوجتى بنزيف كاد يودى بحياتها وفقدنا على إثره جنينا عمره شهران. ورغم ذلك كنت أنا على الأقل راضيًا وساكتًا خوفًا من أن يطردنا الوالد من الشقة وظروفى المادية لا تسمح على الإطلاق بالبحث عن شقة أخرى، والمبلغ الذى استطعت تكوينه من سفرى فى الخارج ضاع فى الشبكة والمهر وخلافه حتى حدث من شهرين احتكاك بين الوالد والزوجة من جراء تدخله المستمر فى شئون المنزل.. وأصبحت بين نارين بين زوجتى التى تركت البيت وذهبت إلى أهلها، وبين الوالد الذى اشتكى لإخوتى فوقفوا إلى جانبه بدافع الحب لوالدهم ودون اعتبار لى أو لزوجتى المسكينة، وعادت زوجتى بعد ضغط عليها من أسرتها. ولكن الوالد من باب العناد قام بسحب الثلاجة والغسالة الموجودتين فى الشقة من قبل إلى غرفته ولا أستطيع أن أصف لك مدى شوقى الشديد وفى هذا الطقس الحار إلى كوب ماء

بارد، وخصوصًا عند الإفطار فى رمضان، بل أشرب وزوجتى من ماء الحنفية.. ولا أصف لك التكاليف الباهظة التى ننفقها هباء من جراء فساد الأكل من شدة الحر.. والزوجة التى تقوم بالغسيل على يديها بعد عودتها من عملها مما يتطلب وقتًا أكبر وجهدًا أكبر وهى الحامل الآن فى شهرها السابع.. تقول لى... وما الذى يجبرك على ذلك؟ لماذا لا تبحث عن شقة وتأخذ زوجتك وتعيشان بمفردكما؟.. أقول لك.. يا سيدى العاطفة من ناحية وعدم ترك الوالد بمفرده مهما كانت الظروف فى هذه السن الكبيرة، والمادة من ناحية أخرى.. فظروفى لا تسمح على الإطلاق.. وراتبى الشهرى يكفى بالكاد.. وزوجتى تعمل فى جهة حكومية من شهر فقط ولم تقبض حتى الآن.. كما أننى أدخل على استقبال ضيف جديد بما يتطلبه من أجر الدكتور والمستشفى إلخ.. وحاولت بقدر الإمكان إرضاء الوالد دون جدوى قل لى بالله عليك ماذا أفعل.. هل أطلقها حتى يستريح وتهدأ نفسه وأستريح أنا أيضًا؟ ولكن ما ذنب هذا المسكين البرىء الذى سيجىء بعد شهرين؟.. وأرجوك لا تقل لى اترك الشقة فأنا غير قادر على إيجاد غرفة للسكن فيها لا شقة. فماذا أفعل؟

صدقنى يا صديقى إذا قلت لك بأمانة إننى لا أعرف ماذا يمكن أن تفعل للتخلص من هذه المشكلة، فالحل المنطقى الوحيد هو استقلالك بمسكن خاص، لكنه حل أصبح فى عصرنا بالنسبة للكثيرين كالغول والعنقاء والخل الوفى! أى من المستحيلات.. ورغم ذلك فإنى لا أرى أن المشكلة بين أبيك وزوجتك مستعصية على الحل إلى هذه الدرجة. ولا أنصحك أبدًا بطلاقها إرضاء لأحد، ليس فقط لأنها زوجتك وشريكة حياتك.. وأم طفلك القادم ولم تقصر فى حقوقك، وإنما أيضًا لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.. وطلاق زوجتك لمجرد الاستجابة لرغبة أبيك وبغير مبررات عادلة ظلم لها وتحطيم لحياتك الشخصية معها.. ولا يرضى ربك بالظلم أبدًا ولا يغفره.

لا مفر إذن من استمرار الحياة كما هى مع ضرورة إقناع زوجتك بأن ترعى كل حقوق الأب مهما فعل معها أو معك وبأن تحاول إرضاءه قدر الاستطاعة، فهو فى النهاية أبوك، وفى منزلة أبيها، وله من سنه ومن محنة وحدته فى هذه السن المتأخرة ما ينبغى أن يساعدها على

فهم بعض نوازعه وتصرفاته، ولا بأس بقدر معقول من المرونة لكى تمضى السفينة عائمة فلا تجنح فى الصخور.

وصدقنى أن بعض ما يعتبره الأبناء تدخلاً فى حياتهم الشخصية من جانب الآباء. ليس فى النهاية إلا تعبيرًا عن الاهتمام بأمرهم، ولا يعرف قيمة هذا "الاهتمام" الثمين يا صديقى إلا من يفقده إلى الأبد فلا يصبح فى حياته من يسأله أين كنت.. وماذا فعلت؟ وفيما عدا الآباء والأمهات ليس هناك غالبًا من هو على استعداد لأن يشغل نفسه بأمرنا إلى هذا الحد فالكل مشغولون بأنفسهم.. والجميع تجرفهم الحياة فى شباكها الصعبة، وأنا أتلقى رسائل عديدة من أصحاب قلوب وحيدة يتحسرون فيها الآن على أيام القيود التى تشكو منها أنت الآن، والتى ضاقوا بها هم أيضًا فى اندفاع الشباب، ثم عرفوا الآن فقط معناها وقيمتها ومعنى أن يكون لنا من يهتم بأمرنا ويسألنا أحيانًا ويحاسبنا أحيانًا. ويبدى الحرص على صالحنا حتى لو غضبنا من ذلك، فبعد الأب والأم يا صديقى يفقد الإنسان إلى الأبد فى كل حياته ومهما اتسعت دائرتها، الود الخالص الصادق المجرد من الهوى والاهتمام العاطفى المخلص.. ويفتقد أيضًا "المخلوقين" الوحيدين على ظهر الدنيا كلها اللذين يتمنيان له من أعماق القلب أن يكون "أفضل" منهما.. والمخلوقين الوحيدين فى العالم كله الذين "يتفاخران ويتشرفان" بأنه أحسن منهما؟ وإلا فقل من فى دائرة حياتك كلها

تستطيع أن تتيقن من أنه يسعده ويطربه أن تكون "أفضل" منه؟ لا أحد بالطبع... وليس هناك سوى الأب.. وسوى الأم فاحرص على هذه القيمة الكبيرة ولا تفقدها.. وذكر زوجتك دائمًا بأنكما ضيوف أبيك.. وأن زمانه رائح مهما بلغ.. وزمانكما قادم.. فماذا علينا لو كنا أكثر صبرًا.. وأكثر ودًا له وأكثر تقديرًا لظروفه..ألا يسهم ذلك بالضرورة فى حل هذه المشكلة؟ أعتقد ذلك.. كما أعتقد أيضًا أن مشكلتك ليست مشكلة شخصية. وإنما أصبحت من مشاكل مجتمعنا الآن بعد أن أعادت أزمة الإسكان إلى الحياة هذا النوع من المشاكل الناجمة عن مشاركة زوجة الابن أو زوج البنت لحياة الأسرة، بعد أن أصبحت نسبة كبيرة من الزيجات تتخذ من مسكن الأسرة مقرًا لها وبعد أن أصبح الاستقلال بالمسكن.. من الأمانى القومية لعدد كبير من الشباب كما كان الاستقلال عن "انجلترا" أكبر الأمانى القومية لمصر أيام الاحتلال البريطانى!

فكرت كثيرًا قبل أن أكتب إليك هذه الرسالة.. وأخيرًا استجمعت شجاعتى رغم تحذيرات إخوتى لى من أن ذلك سوف يسيىء إلى مشاعر أسرتى.. لأن لنا كرامة نخشى عليها. لكن الواقع المؤلم الذى أعيشه يدفعنى دفعًا للتجاوز عن هذا الاعتبار..فأنا طالب فى السنة الثالثة بكلية الطب.. ولى عدد من الإخوة كلهم يتعلمون فى الكليات والمدارس. ولقد بدأت قصتنا حين أصر أبى الموظف الصغير على أن يعلمنا جميعًا تعليمًا عاليًا، ولم يستجب لما كان ينصحه به شقيقه من أن يوجهنا إلى تعلم الحرف رحمة بنفسه.. لكن أبى واصل كفاحه لتعليمنا وادخل ابنه الأكبر وهو أخى كلية الهندسة حين كان راتبه لا يتجاوز الثلاثين جنيهًا..

وكنا نحن أطفالاً فى الابتدائى، فكان أبى يحرم نفسه ويحرمنا من الضروريات لكى يقدم لشقيقى ما يحتاج إليه.. وكان يقترض من هذا ويقترض من ذلك ليشترى له أدوات الرسم الهندسى والكتب وغيرها... إلى أن نجح أخى وتخرج وتوظف وانتظر أبى أن يحصل على ثمرة مجهوده ليستمر فى تعليمنا وليقطع معنا نفس المشوار. فلم يخيب أخى ظنه وأصبح يعطيه ٦٠ جنيهًا كل شهر من راتبه ودخله.. لينفقها

علينا وانتقل أخى من نجاح إلى نجاح فى عمله، وخلال سنوات معدوده كان راتبه ودخله قد بلغا ٤٠٠ جنيه كل شهر وأصبحت له مدخرات فى البنك.

واستعد أبى ليجنى المزيد من الثمار مما يخفف عنه وعنا أعباء الحياة.. لكن شقيقى بدأ يخفض مبلغ الإعانة الشهرية التى يعطيها لأبى مع اتجاهه لأن يبنى لنفسه حياة مستقلة. فقد خطب فتاة وتزوجها وأنفق على زواجه وعلى إيجاد مسكن. وهكذا أصبح المبلغ الشهرى الذى يقدمه لأبى بعد الزواج عشرين جنيهًا فقط لا غير!.

ورغم أن ذلك قد يبدو منطقيًا مع ظروف الزواج فإن أبى قد نقم على أخى ذلك ولم يغفره له أبدًا، وأصبح يقبل المبلغ الشهرى الضئيل كارهًا ومكرهًا وساخطًا. ليصب علينا نحن جام العذاب! وكأن أبى يتمنى أن أصبح طبيبًا لكى يستريح. وبالفعل دخلت كلية الطب استجابة لرغبته وهى دراسة مكلفة كما تعلم ونجحت بتفوق حتى السنة الثالثة.. وكانت الحياة تمضى بصعوبة لكنها ماشية كما يقولون، حتى حدث ما حدث من أخى وسخط أبى عليه.. فلقد أصبح يذكرنى كل يوم بما فعله أخى الأكبر معه.. ويقول لى إننى سأفعل نفس الشيء معه، بعد أن أتخرج وكلما حاولت أن أقنعه بأن الناس يختلفون فى الطبائع، وأنه ليس بالضرورة أن أكون مثل شقيقى فى كل

شىء لا أسمع منه سوى التقريع والمرارة. قائلا لى إن شقيقك يقول الآن هو الذى علم نفسه وليس أنا. فماذا سيمنعك من أن تقول هذا الكلام نفسه حين تتخرج. فأسكت أحيانًا.. لكن الكارثة أنه حين يتولاه الإحساس بالقنوط والإحباط بسبب شقيقى يمتنع تمامًا عن الصرف على تعليمى قائلاً: ولماذا أحرم نفسى من الضروريات لأعلم من لن يعترف بجميلى عليه حين يقف على رجليه... أو من سيتركنى لمعاناتى مع باقى إخوته وينصرف لحياته هو! وأحاول عبثًا أن أغير أفكاره فلا أستطيع، إلى أن تمر هذه الموجة ونشهد بضعة أيام من الصفاء ثم يعود لأفكاره السوداء ولعذابنا من جديد. وعلى هذا الحال أعيش أنا وإخوتى الذين ما زالوا فى مرحلة التعليم، والسبب هو جحود أخى لأبيه؟.. فما ذنبنا نحن.. وماذا نفعل لنقنعه بعكس ما يدور فى أفكاره؟ وهل تستطيع أن تقنعه بعدم صحة هذه الأفكار السوداء لكى يواصل المشوار معنا.

إن شقيقك ليس السبب فى معاناتكم ولكنه أبوك وفكرته غير الصائبة عن الحياة والأبناء ومسئولياتنا تجاههم، لقد حرم أبوك نفسه وعلم أبنه الأكبر حتى تخرج فى كلية الهندسة، وهذا كفاح مجيد يستحق عليه التحية والاحترام لكن ما حدث بعد ذلك ليس صائبًا ولا حكيمًا من جانب أبيك. فلقد تصور أنه بتعليمه لابنه قد أصبح يملكه ملكية كاملة، ويملك كل ما فى يده فإذا أعطاه نصف ما فى يده فإنه يصبح مغتصبًا للنصف الآخر! وإذا أعطاه ثلث ما فى يده فقد اغتصب بذلك لنفسه الثلثين وبذلك فهو مقصر.. وجاحد دائمًا ولم تثمر فيه التربية، وهذا خطأ كبير يقع فيه بعض الآباء تحت ضغط قسوة الحياة. أو بسبب الجهل فى أحيان أخرى فنحن لا نربى أبناءنا كمشروعات استثمارية لتدر علينا دخلاً كبيرًا فيما بعد، فإن لم تحقق هذا الدخل المنتظر أصبحت مشروعات "غير اقتصادية" أو مشروعات خاسرة لا تستحق ما أنفق عليها من مال وتعب وحرمان فنحزن ونندبُ حظنا.. ونكف يدنا عن الإنفاق على باقى المشروعات الصغيرة التى مازالت تحت الإنشاء.

إن هذا التصور الخاطىء هو إهانة فى حد ذاته لفكرة الأبوة.. وفكرة البنوة وفكرة الأمانة التى أعطيت لنا من الخالق لنرعاها، فنحن نربى أبناءنا لأن هذا هو واجبنا أمام الله تجاههم وتجاه الحياة من حولنا. فإذا أدينا الأمانة حق أدائها فلقد فزنا الفوز المبين، وإن فشلنا فالله مطلع على القلوب، ويعلم ما فى الصدور، وسوف يحاسبنا على قدر مسئوليتنا عن هذا الفشل، ولو أدى كل أب أمانته بهذا الإحساس فإنه لن يصطدم فيما أتصور ذات يوم بأية لمحة جحود أو إنكار من جانب أبنائه. ذلك أن بذرة الجحود يغرسها المن على الأبناء بما صنعنا لهم وبما فعلنا من أجلهم، ناسين أن ما فعلنا هو أصلاً واجبنا تجاههم وهو أصلاً من صميم حقوقهم علينا.

وإننا كنا سعداء بما نفعل لأننا نحقق به ذاتنا فى أبنائنا، ونرى فيهم أنفسنا، لكن ذلك لا يعنى أبدًا أن يتخلى الأبناء عن مساعدة آبائهم بل ولا أتصور أن ينشأ ابن نشأة سليمة فى ظل تربية صالحة ثم يتخلى حين يكبر عن أهله، أو عن واجبه تجاه أبيه وأشقائه، ولن يحيا حياة سعيدة أبدًا لو فعل. وإنما يعنى ذلك فقط ألا يسىء بعض الآباء فهم مسئوليتهم عن أبنائهم فيمنون عليهم بكل نسمة هواء استنشقوها فى مرحلة التعليم ويطالبونهم بسداد ثمنها.. ويعنى أيضًا ألا ينظر بعضهم إلى ما يؤديه لهم الأبناء نظرتهم إلى "الحق الناقص" مهما بلغ حجمه، إذ لا يجوز لنا أن نقيس تضحياتنا من أجلهم بتضحياتهم من

أجلنا لسبب بسيط هو أننا آباء مكلفون.. وهم أبناء وما أعطيناه لهم كان واجبًا علينا وسوف يردونه غالبًا أضعافًا مضاعفة لأبنائنا كما رددنا نحن غالبًا ديون أبائنا علينا إلى أبنائنا، وبقدر ما نرعى حقوق أبائنا سوف يرعى أبناؤنا حقوقنا فإن جحدنا آباءنا لا يحق لنا أن ننتظر من أبنائنا أن يكونوا مثلاً للوفاء والبر بنا، وهذا هو سر الحياة وحكمة تواصل الأجيال فيها.

وفى رأيى أن شقيقك هذا ليس ظالمًا لأبيه ولكم بالصورة التى تصورها لى رسالتك ولا أصدق أنه يتقاضى ٤٠٠ جنيه وهو خريج حديث، وإن له مدخرات فى البنوك، وأتصور أن ذلك مبالغة من مبالغات أبيك.. فالحياة صعبة من حول الجميع وأعتقد أن جريمته الأولى فى نظر أبيك هو أنه بنى لنفسه حياة خاصة وتزوج فى منتصف الطريق، وكان الأولى به فى رأى أبيك أن يكرس حياته لكم حتى تتخرج أنت على الأقل، ثم يبنى لنفسه حياته بعد ذلك، ولو فعل لكان ابنا مضحيًا.. يستحق الاحترام لكنه إن لم يفعل لا يصبح مجرمًا فليس كل الناس على استعداد لأن يكونوا ملائكة مضحين من أجل الغير، وخيركم أعذركم للناس ولعله رأى العمر يمضى به ورغب فى ألا يفوته القطار، وقد يكون له بعض العذر فى ذلك فقل له كل ذلك واطلب منه أن يتفهم أسباب اضطرار شقيقك إلى تخفيض المبلغ الشهرى بعد الزواج وأعبائه.. فلعله يرحمكم من لذعات لسانه ومن

تقريعكم.. دائمًا. وألف لعنة على واقعنا الأليم الذى يجعل من مثل هذه المشكلة موضوعًا لرسالة طويلة عريضة ومبلغ الأربعين جنيهًا التى اعتبرت دليلاً على الجحود وأفسدت حياة أسرة بأكملها يستنشقه أخرون فى لحظة واحدة طلبًا للمتعة. أو يكسبه منادى سيارات فى موقف مزدحم فى يوم واحد أو يومين. ولله فى خلقه شئون وعمومًا تفضل بزيارتى فلعل بريد الأهرام يستطيع أن يصلح بعض ما أفسدته وساوس أبيك وأفكاره.

رسالتى هذه ليست مشكلة تحتاج إلى حل بقدر ما هى نموذج يوضح أنه لا مستحيل أمام قوة إرادة الإنسان وقوة حبه وإيمانه.. وقصتى تبدأ منذ عشر سنوات وأنا طالب فى الجامعة.. ولعلك سوف تندهش لبعض تفاصيلها.. لكنى أقول لك إنه لا جديد فى الدنيا ولا غرابة فيها.. ففى الحياة كل ما تتخيل وما لا تتخيل من وقائع.. فلقد كنت طالبًا فى الجامعة.. وكانت هى أستاذتى فيها.. نعم أستاذتى!

لماذا تستغرب؟.. أليست الاستاذة بشرًا يحب ويكره ويتزوج ويطلق كسائر البشر؟.. ولقد رأيت فيها المرأة الكاملة التى يتمناها أى إنسان.. فهى سيدة رقيقة أنيقة .. نشيطة طموح.. مثقفة خفيفة الظل . وقبل ذلك محترمة من الجميع.. وقد علمت إنها أرملة ولها طفلان فشغفت بها حبا، ولا تسألنى كيف حدث ذلك، فلقد وجدت نفسى بالتدريج وخلال فترة طويلة مجنونًا بها ومصممًا على أن تكون أستاذتى هذه هى زوجتى وشريكة حياتى. فعملت المستحيل حتى أحست بى وبوجودى وصارت هى حلمى الوحيد.. وعرفت من اليوم الأول أنه لا طريق إليها إلا بأن أكون أهلاً لها. وبالتالى فلابد

من النجاح بتفوق لكى أعمل معيدًا ثم مدرسًا بالجامعة وأصبح زميلاً لها بعد أن كنت تلميذًا لها. وأمضيت الليالى ساهرًا وخلال عامين من بداية حبى لها كنت قد نجحت وتفوقت تفوقًا لا يتيح لأحد فرصة تجاوزى فى أى تعيينات بالكلية، وعينت فعلا عقب التخرج معيدًا وأصبحت الخطوة التالية الآن قريبة، فبدأت المرحلة الأولى من مشروع الزواج بمفاتحة أهلى فى الموضوع لكن الأهل لم يرحمونا وسمعت الكثير من اعتراضاتهم وكلماتهم المؤلمة.. لماذا تتزوج من أرملة وأنت شاب صغير لم يجرب حظه فى الزواج؟ أو لماذا تتزوج من سيدة تكبرك بعدة سنوات؟ أو هل ضاقت بك الدنيا حتى تتزوج بسيدة عزباء إلخ.

وسمعت وسمعت لكنى لم أعر كل هذه الأقاويل التفاتا، وكلما نظرت إليها وجدتها تزداد على مر السنوات جمالاً وشبابًا. وقررت أن أطلب يدها من أهلها بدون موافقة أهلى.. وذهبت إليهم وحدى بلا أى رفيق من الأهل.. فكانت الصدمة أن رفضنى أهلها وبشدة، فانهارت أحلامى ولم يعد هناك مفر من الفراق فمضيت أنا إلى طريق ومضت هى فى طريق آخر.

وعشت سنوات بلا حياة. ثم حاولت الاستجابة لنداء العقل كما قال لى الأهل. فتقدمت لخطبة فتاة تصغرنى فى السن. كما ينبغى أن

يكون.. وكما يقول العقلاء وتزوجتها وقلت لنفسى لعل معهم الحق فيما يقولون فالشباب بهجة ومرح وعطاء، ولا يجوز أن أحرم نفسى منه. فتزوجت زوجتى الشابة تلك. فإذا بى أعيش مع "عجوز" فى قلبها.. وفى عطائها.. وفى ابتسامتها.. وكنت أنظر إليها.. وأقارن بينها وبين الأخرى فأجد الأخرى مازالت زهرة ناضرة رغم بعض الشحوب والحزن. وأجد زوجتى الشابة. كهلة فى روحها وبعد معاناة طويلة استمرت ٥ سنوات قررت أن أضع حدًا للمأساة التى أعيشها، وقررت أن أطلق زوجتى الشابة، وأن أتحرر من حياة مزيفة لا أحس فيها بالحب والمشاركة وائتلاف روحى مع روحها، وذهبت إلى أستاذتى وأنا فى الثلاثين وهى فى الأربعين بعد أن أضعنا ٥ سنوات ثمينة من حياتنا، وصدقنى أننى رأيت أمامى عروسًا كالزهرة الناضرة تنتظرنى فطلبت يدها وبكينا على السنوات التى ضاعت من حبنا وعمرنا وبارك أولادها حبنا وزواجنا، وتزوجت حبيبتى بعد طول ضياع واغتراب. ورزقنا الله بمولود رائع كأمه وأنا أكتب لك هذه الرسالة لأنى أتابع رسائل بريد الجمعة وأعرف كم تسعد برسالة لأى قارىء يحكى لك فيها عن تجربة مضيئة تظللها السعادة. لذلك أكتب إليك لأقول إننى سعيد... سعيد إلى حد أخشى معه على هذه السعادة. وأريد أن أقول لكل محب صادق ألاَّ يسمع لكلام الناس.. وألا يجعل سعادته رهينة بآرائهم وكلامهم مادام لا يغضب الله فيما يصنعه فإنه لو سمع كلام الآخرين فلن يجنى سوى الحسرة والندم.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

شكرًا لك لأنك أردت أن تثرى تجربتنا الإنسانية ومعارفنا بتجربتك الفريدة هذه.. وفى الحقيقة فليست هناك تجربة إنسانية.. يطلع عليها المرء ولا يستفيد منها شيئا سواء اتفق أو اختلف معها.. ونحن عادة لا نتعلم من تجاربنا وحدنا، وإنما أيضًا من تجارب الآخرين حولنا.. ولعلنا نتعلم أحيانًا من التجربة المؤلمة بأكثر مما نتعلم من التجارب السعيدة، وهذه مفارقة عجيبة من مفارقات الحياة!.. وعلى أى حال فهنيئا لك سعادتك التى توصلت إليها بإصرارك الغريب وإرادتك الحديدية.. وما الحياة يا صديقى سوى رحلة بحث مستمرة منذ فجر الإنسانية عن السعادة.. وفى رأيى أن كل ما يحقق سعادة الإنسان دون الإضرار بالآخرين ودون الخروج على تعاليم السماء مقبول ومشروع بل ومطلوب أيضًا بشدة، وحتى شرط التكافؤ بين الزوجين فى السن والظروف والحالة الاجتماعية لم يوضع عبثًا.. وإنما شرع أصلاً لضمان أسباب السعادة والتفاهم والتجاوب فى الزواج بقدر الإمكان، لكن لكل قاعدة استثناء دائمًا.. والسعادة فى النهاية مسألة شخصية جدًا. لا يستطيع أن يحكم عليها أحد من

الخارج، ولا يمكن أن يحكم عليها بصدق إلاَّ من يعيش التجربة بنفسه فمادمت سعيدًا وموفقًا فى زواجك فهذا شىء رائع.. وفى ظنى أن سر سعادتك هو أنك قد أحببت حبًا عظيمًا مما يقال عنه، حب العمر، وأنك حددت هدفك ومضيت إليه بلا تردد. وإنك كرست حياتك لتحقيق هذا الهدف فبلغته وحق لك أن تهنأ به.

وإن كان فى تجربتك هذه شىء سلبى.. فهو فقط فى أنك خلال رحلتك هذه قد ظلمت زوجتك الشابة بغير إرادة.. وكان الأفضل لو لم تخض تجربتك معها من الأساس.. إلا بعد أن تتأكد من نفسك ومن أنك قد تخلصت عن تأثير "الأستاذة" عليك.. لكنك تسرعت وحاولت.. وأخطأت... وعشت مع زوجتك بقلب غائب.. وبعين تنظر إليها بإحساس المقارنة بينها وبين الأخرى.. فأذيتها بلا جريرة وكان الفشل هو النتيجة الطبيعية... فلعل الله يعوضها عن تجربتها الخاسرة معك... ولعلك تكفر عن ذلك بطلب المغفرة، والله غفور رحيم دائمًا.. ومرة أخرى هنيئًا لك سعادتك مع شريكة عمرك.. لكن لا تطلب من الآخرين أن يكرروا تجربتك دائمًا .. وفى كل الأحوال... فما يصلح لإنسان قد لا يصلح لآخر دائمًا.. ولكل تجربة ظروفها، وقوانين الحياة العامة أولى بالاتباع فى الظروف العادية.. أما فيما عدا ذلك فالقلوب أحيانًا تصنع المعجزات.. كما حدث معك فى تجربتك.



واحة الكتب

أنا من المتابعين لبريد الجمعة.. ورأيت كثيرين يبعثون إليك بمشاكلهم على أمل أن تجد حلاً لها، لأنهم عاجزون عن التوصل إلى هذا الحل.. لكنى لم أكتب إليك رسالتى هذه لتجد لى حلاً لسبب بسيط هو أننى أعرف المشكلة وأعرف الحل، لكنى لم أقدم على هذا الحل حتى الآن.. وإنما كتبت لك لكى تعرض مشكلتى التى تمثل مشكلة خطيرة من مشاكل مجتمعنا ومشاكل الشباب الآن.

ولأبدأ من البداية أنا طالب بكلية من الكليات المرموقة. وقد أعطانى أبى حريتى فى أن أذهب إلى النادى وأسهر مع أصدقائى وأقوم برحلات داخلية فى مصر مع أصدقائى.. وقد احترمت هذه الحرية، ولم أقم بأى عمل يشعرنى بأننى لم أحترم هذه الحرية، إلا فقط منذ أن بدأ الكتاب يكتبون كل يوم عن ظاهرة انتشار المخدرات بين الشباب! فلقد بدأ والدى ينظر إلى بعين الشك خشية أن أكون قد انجرفت إلى المخدرات، فإذا تأخرت فى الخارج، أو نمت طويلاً وإلى وقت متأخر من ظهر اليوم التالى يسألنى هل تتعاطى المخدرات أم لا؟ إلى درجة أن أصبح يمنعنى من الذهاب إلى النادى، وقرر عدم سفرى فى رحلة داخلية كنت قد قمت بمثلها فى العام الماضى مع عدد من

أصدقائى بحجة أن الشباب يفسد بعضه بعضا، وقد اكتشفت يا سيدى أننى لست وحدى الذى أعانى نظرة الشك هذه.. فكل زملائى فى الكلية قد بدأوا يرون نظرات فى عيون آبائهم بخصوص هذا الموضوع.. فماذا نفعل؟ سأقول لك يا سيدى ماذا قررنا أن نفعل ردًا على هذه النظرات.. لقد قررنا أنا وأصدقائى جميعًا أن نتعاطى المخدارت والبراشيم من أجل نظرة الشك هذه! وقد بدأنا فعلاً وسأخبرك بكل ما أحسست به وما أحس به زملائى بعد هذا التحول الخطير فى حياتنا.

لقد كانت نظرة الشك فى عين أبى قبل أن أبدأ فى تعاطى المخدرات تقتلنى.. بل وتمزقنى نفسيًا ـ للظلم الذى كنت أحس به لأنه قريب منى ويعرف أخلاقى جيدًا فكيف يشك فى وأنا ابنه؟ أما الآن وبعد أن بدأت أتعاطى المخدرات فإن نظراته هذه لم تعد تؤثر فى نفسيتى لأننى لم أعد أشعر بالظلم.. ولأننى أتعاطى فعلاً "البراشيم"، وقد أحسست براحة غريبة لأن هذه النظرة لم تعد تؤثر فى.. وقد تسألنى هل هذا الألم الذى أشعر به فى نفسى قد انتقل إلى ضميرى أم لا؟ وسأخبرك بأنه لم ينتقل إلى ضميرى والحمد لله لا لأن ضميرى ميت، ولكن لشعور جارف لدى بأن والدى هو الذى دفعنى إلى ذلك، وقد تعتبرنى أبالغ فى ذلك لكنى أقسم لك إن هذا هو شعورى وشعور عشرات من أصدقائى وزملائى فى النادى وكلهم من كليات مرموقة.. وأضيف

إليك شيئًا أن انطلاق الجرائد والمجلات فى الكتابة عن ذلك ليس له هذا الأثر فقط بل إن كثيرين من أصدقائى لم يكونوا يهتمون بالمخدرات أو البراشيم، ولكن بعد أن وجدوا كل الجرائد تكتب عنها جذبهم ذلك إلى هذا العالم الجديد من المخدرات، وبدأوا يسألون عنها وعن آثارها وكيف تؤثر فى الإنسان؟ وأرادوا أن يشعروا بذلك بأنفسهم فبدأوا فى تعاطيها حتى أدمنوها، بل إن لى صديقًا طالبًا بالفرقة الثانية بكلية الطب وهو ناجح فى دراسته جذبته جدًا فكرة أن الإنسان يدمن الهيروين، ومن الشمة الأولى أو الثانية ولم يكن يصدق ذلك حتى قرر أن يخوض التجربة بنفسه وفعلاً خاضها وكانت النتيجة كالمتوقع.. فقد أدمن الهيروين من الشمة الثانية. وعندما سألته عن شعوره قال لى إنه نادم لأنه أراد أن يخوض تجربة وقد خاضها على الرغم من أن نتيجتها قد تذهب بحياته.

إننى أهدى هذه القصة إلى كل من انطلقوا في كتاباتهم يحذرون الآباء والأبناء متصورين أن ذلك فى مصلحتهم.. والحقيقة إن ذلك لم يكن في مصلحتهم أبدًا. وأعرف أنك قد لا تنشر هذه القصة لكنى عمومًا أردت من إرسالها أن أنبه الآباء ألا ينظروا إلى أبنائهم نظرة شك في أولادهم.. وأنبه الكتاب بأن يقللوا من كتاباتهم في ذلك الموضوع وشكرًا، التوقيع طالب جامعي مدمن!.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

هذه هى الرسالة الخطيرة التى تلقيتها من طالب جامعة ولكاتبها أقول على عجل. إننى مشفق عليك من الهاوية التى سقطت فيها بإرادتك. ومختلف معك فى كثير من جوانب تفسيرك "الفلسفى" لأسباب ضياعك!

أما أننى مشفق عليك فلأنك مريض وكل مدمن مريض حتى يشفى، وإن كنت أنت قد سعيت إلى المرض بقدميك، ووضعت رأسك بنفسك فى "خية" تضيق حلقتها يومًا بعد يوم على عقلك وصحتك وكيانك.

وأما أننى مختلف معك فلأنك ـ استغراقًا فى الوهم ـ أعفيت نفسك من كل المسئولية وألقيتها على كاهل أبيك.. وعلى كاهل الكتاب الذين حذروا من انتشار ظاهرة المخدرات بين الشباب.. ووجدت فى تفسيرك هذه الراحة لنفسك فاستنمت إليه.. وهذا أيضًا من طبائع الإدمان لأن المدمن إنسان غير مسئول.. ويحب دائمًا أن يحمل مسئوليته للآخرين ويعفى نفسه منها. لكيلاً يزعج نفسه ورأسه بالتفكير فى الأسباب الحقيقية.

لقد نشرت رسالتك هذه دون تردد، على عكس ما توقعت أنت ليتنى لا اعتبرها ـ كما تقول ـ دليلاً على انتشار ظاهرة الأدمان بين شبابنا، فأنت وأصدقاؤك لا تمثلون شبابنا.. وإنما تمثلون شباب مجتمعكم المحدود.. وهو مجتمع الأقلية.. وليس مجتمع الأغلبية..

ولسبب جوهرى هو أننا أمة محدودة الموارد تلمس غالبية شبابها خطر الفقر من أعلاه أو أسفله صعودًا أو هبوطًا.. وهؤلاء لا يملكون ترف "الانتحار" بالإدمان.. كما تنتحرون... ولا يملكون ترف إمكان قتل أنفسهم بالهيروين الذى يبلغ ثمن الشمة الواحدة منه مئات الجنيهات كما تملكون.

إنها أذن ليست مشكلة مجتمعنا الذى نعرفه... لكنها مشكلة مجتمع غريب لا نعرف عنه الكثير، ومع ذلك فهى تستحق العرض للتنبيه من خطورة إدمان المخدرات حتى ولو ساءك ذلك. لأنك بمنطقك المعكوس ـ ترى أن التحذير من الخطأ داع إليه. وهو ليس كذلك بالنسبة للأسوياء.. وإنما كذلك فقط للاهين.. العابثين الذين لا يجدون ما يشغلهم فيودون دائمًا خوض التجارب الجديدة... ثم لا يندمون بعد ذلك على خوضها!!

وإننى أعجب لتفكيرك هذا...فالصحف تحذر أيضًا من أن يضع أحد يده فى كابل الكهرباء لكيلاً تصعقه.. فلم لم يرد أحدكم أن

يخوض هذه التجربة "بغير ندم" كما فعل صديقك طالب الطب أو كما فعلت أنت غالبًا مع تجربة الهيروين، لأننى أشك فى أنك تتحدث عن نفسك لا عنه.

أتريد أن تعرف السبب؟ لأن خوض التجربة الأولى يعد لذة موهومة وإن كانت قاتلة قتلاً بطيئًا، أما التجربة الثانية فلا تعد إلا بالموت فى لحظة.. لذلك فهى تجربة غير مرغوبة!.

ليست هى أذن تحذيرات الكتاب.. وإنما الرغبة فى الاستمتاع.. والفراغ.. والجدة التى هى مفسدة للمرء أى مفسدة!! وبنفس منطقك المعكوس.. عاملت أباك المشفق عليك من الانحراف.. وبدلاً من أن تطمئن باله عليك بالاستقامة.. وتبديد الشك والقلق من نفسه.. اعتبرت نظرة الشك فى عينيه ظلمًا لك، يستوجب الانتقام بالانحراف لكى يصبح الشك فى محله!.

إننى معك فى أن الثقة تولد الاحترام وتدفع الإنسان للالتزام بالسلوك القويم لكى يكون جديرًا بهذه الثقة، لكن هذه الثقة أيضًا لا ينبغى أن تكون عمياء فى هذه المرحلة الحرجة من العمر للشباب. وإنما ينبغى أن يلازمها شىء من الرقابة عن بعد لمقاومة أى بوادر انحراف قبل استفحاله، ولإسداء النصح عند الضرورة، وأبوك لم يجرم أن خاف عليك المخدرات.. أو حاول تقييد بعض حريتك الفضفاضة

بعد أن لاحظ بعض البوادر بالتأكيد كالنوم حتى مغيب الشمس كما تقول! بل لعله تأخر فى الملاحظة كثيرًا ومؤكد أنه أسهم فى انحرافك بإغداقه عليك بما يسمح لك بدخول عالم الوهم، وبأنى لم أقرأ أية إشارة فى رسالتك إلى مسألة الدين كأنما لا وجود له فى عالمك.. ومع ذلك فقد اعتبرت نظرة الشك فى عينيه جريمة فى حقك! فلم لم تعتبرها نظرة إشفاق عليك وحب لك ورغبة فى الاطمئنان عليك؟ والغريب إنك حاولت إقناعى بصدق تفسيرك هذا وقلت لى إن أصدقاءك وزملاءك فى النادى عانوا هذه النظرات وإن ذلك كان بداية لانحرافهم وليس هذا صحيحًا يا صديقى، والحق أننى لا أفهم هذا النوع العجيب من الحساسية المريضة لدى بعض الشباب.. إننى أفهم أن يكون المرء حساسًا فتدفعه حساسيته المرهفة إلى تجنب أى عمل وأى فعل يمكن أن يضعه فى موضع اللوم والحساب والتعنيف والعقاب، لأنه حساس لا يتحمل اللوم! أما أن يكون حساسًا فقط ضد انتقاد الأهل لانحرافه وتصرفاته.. مع الإصرار على الانحراف والإصرار على الخطأ فهذه ليست حساسية... وإنما تنطع وبلادة حس ورغبة فى فرض الأمر الواقع الخاطىء على الآخرين.

وهو تنطع يغذيه الإدمان الذى يحول الجلد الحساس إلى جلد سميك لا يشعر بوخزة الإبرة كجلد الفيل..

والدليل أن نظرات الأب لم تعد تؤثر فيك.. ولن تؤثر فيك هى أو غيرها إلا إذا أفقت.. وأنقذت حياتك وعدت إلى نفسك، وساعتها سوق تكتب إلى رسالة جديدة تطالب فيها الكتاب بالتركيز على تحذير الشباب من المخدرات فكن رجلاً.. وتوجه إلى أقرب عيادة طبيب لعلاج نفسك من الإدمان القاتل قبل فوات الأوان.

أنا يا سيدى ـ شاب فى السادسة والثلاثين.. شاء الله لى ـ والحمد لله ـ أن أصاب وأنا فى الثانية عشرة من العمر بمرض الحمى الشوكية التى أفقدتنى حاسة السمع.. ولن أثقل عليك ـ يا سيدى ـ بمعاناتى الخاصة التى أعيشها يومًا بيوم منذ دخولى إلى عالم الصمت حتى اليوم، خصوصًا وقد كنت فى السنة الأولى من المرحلة الإعدادية.. وأيضًا لن أثقل عليك بمشوارى العلمى الذى حفرته فى الصخر، ولن أذكر لك شيئًا عن الشهادات.. فقد عاهدت الله ـ سبحانه أن يكون هذا كله سرًا بينى وبينه دون ما تفاخر بما حصلت حتى أحقق الأمل المنشود ودون ما أنين مما أعانيه.. فقط اعتبرنى حاصلاً على الثانوية العامة وهذه هى صفتى الرسمية التى أعمل بها فى إحدى شركات القطاع العام منذ قرابة ١٥ سنة "بقرار وزارى"، وأود ألا يفوت ذكاءكم ما تعنيه عبارة "بقرار وزارى"! وقد تزوجت وأنجبت والحمد لله ونعيش فى شقة صغيرة فى حى متواضع وعندما أقارن نفسى بعاهتى مع زملائى أكتشف بأن الله قد وهبنى الكثير.. لكن فى وضع الهرم المقلوب الذى نعيشه يحدث الكثير من التفاوت فقد سافر زملائى للدول العربية واحدًا بعد الآخر، وغيروا أوضاعهم الاجتماعية بالكامل وبقيت أنا محلك سر! لكننى فخور بعرقى

راضيًا بعائده.. ولكن ضروريات الحياة لا ترحم أحيانًا خصوصًا إذا كانت وراءها آمال عريضة، وقد أخذت أبحث عن عمل بعد الظهر فى مجال كتابى أو حسابى، ولكن العاهة إياها ما زال البعض ينظر إليها نظرة عسكرية "غير لائق".! رغم حبى للعمل وإنجازه بكل الإخلاص والتقانى.. وحاليًا اتجهت وجهة أخرى حيث إن لى هوايات كثيرة منها حرفة النجارة والتبيض بالزيت والتوصيلات الكهربائية المنزلية وتركيب فينيل الأرضيات، وأحاول أن أستثمر إحداها.. أين وكيف هذا مازلت أحاوله.. أحاول أن أقدم عرقى خالصًا من أجل مجتمعى ولو بمقشة.. وأنا لا أطلب منك شيئًا بعد نشر هذه الرسالة سوى سؤال واحد لا أسألكم إياه ولكننى فقط أعرضه عليكم..

لماذا يقف المجتمع من أصحاب العاهات هذا الموقف؟ برغم كفاءتهم إذا ما وضع كل فى الموضع المناسب يمكنه أن ينجز أضعاف ما ينجزه غيرهم.. ولماذا الحرمان من شرف خدمة المجتمع وهو الأولى والأحق بكل قطرة عرق من أجله؟ ذلك يا سيدى هو السؤال!!

ولكاتب هذه الرسالة أقول

إننى بحق لا أعرف لماذا يقف المجتمع من أصحاب العاهات هذا الموقف.. ولا أرى سببًا يبرر حرمان إنسان ما من حق له لأن الطبيعة حرمته من بعض ما أغدقت على غيره من الأسوياء. وفى ظنى أن كل إنسان ميسر لأداء عمل معين بكفاءة تامة بل وبامتياز وتفوق لو أحسن اختيار هذا العمل الذى يلائم إمكاناته.. بل إن إحساس التحدى للعاهة الذى يحمله الكثيرون من المعذبين بنقص بعض الحواس يدفعهم للإجادة وتعويض النقص بالتفوق على الأسوياء. وكم من عباقرة دخلوا التاريخ بإنتاجهم الفنى والأدبى والعلمى والعملى بالرغم من عاهاتهم الصغيرة، فليست المشكلة إذن مشكلة كفاءة لكنها مشكلة نظرة خاطئة وقصور معيب فى فهم قدرة الإنسان الخلاقة على العمل والابتكار، مهما قست عليه الطبيعة وبالنسبة لك شخصيًا أمكنتنى الظروف من توفير عمل إضافى لك، فاتصل بى والله المستعان على ما يصفون.

أكتب إليك هذه الرسالة تعليقًا على رسائل عديدة أقرأها فى بريد الجمعة يتحدث فيها شباب عن حيرتهم أمام معضلة العصر وهى الزواج، بعضهم يتحدث عن مشكلة الشقة باعتبارها العقبة الأساسية.. وبعضهم يتحدث عن رفض زميلاته له لأنه صاحب تجربة سابقة فى الزواج لم يوفق فيها.. وبعضهم يشكو قسوة المجتمع عليه لأنه بلا أهل.. وكل هذه المشاكل مشاكل كبرى وحقيقية من مشاكل مجتمعنا الآن.. لكن إذا كان الشباب حائرين.. فكيف تكون إذن حيرة الفتيات؟

إن الفتى مهما كانت مشكلته يستطيع أن يبحث عن الفتاة التى تلائمه حتى يجدها ثم يتقدم إليها ويخطب يدها، والمجتمع يتقبل منه ذلك لكن ماذا تفعل الفتاة التى تريد أن تحيا حياة طبيعية إذا لم يطرق بابها أحد طالبًا زواجها؟ هل يتقبل منها المجتمع أن تبحث بنفسها عمن تريده لنفسها كما يتقبل ذلك من الشاب؟

أرجوك لا تسخر منى فإنى أتحدث عن مشكلة أساسية لدى عائلات وأسر عديدة، لكن الأسر تتحرج من الحديث فيها علنًا رغم أنها أكبر همومها، ولأضرب لك مثالاً بنفسى،

فأنا فتاة من أسرة محترمة ووالدى يشغل منصبًا من أرقى المناصب، ويحمل أرقى الشهادات من أوروبا وهو رجل محافظ متمسك بالقيم الدينية. وقد تعلمت فى المدارس الخاصة وأجدت الإنجليزية حتى ليستعان بى فى استقبال الوفود الأجنبية، وربيت على احترام النفس والالتزام بالقيم، وحملنى ذلك على أن أصون نفسى خلال دراستى فى كلية الطب.فلم أجار غيرى فى قضاء الوقت مع الشبان فى مقصف الكلية، ولم أخطب اليوم لهذا تم فسخ الخطوبة غدا، فالتكافؤ شرط لصحة الزواج فى الإسلام. وأنا الآن أشغل منصب طبيبة نائبة وأدرس للماجستير، وفى محيطى يضرب بى المثل فى الخلق وأسرتى ميسورة جدًا. ورغم ذلك فلا نصيب لمثلى فى سوق الزواج، وليست هذه هى مشكلتى وحدى وإنما هى مشكلة كثيرات تضمهن البيوت المحافظة ولا يغشين المجتمعات. وبالتالى فلا نصيب لهن فى سوق الزواج، لأننا فى عصر لا نصيب فيه الآن إلا قليلاً للفتاة، التى لا تتعرف بالشبان فى غفلة من أهلها لتظفر من بينهم بعريس أى عريس. والغريب أن الشبان يستجيبون لعواطفهم وتقبع الفتيات اللاتى يتعففن عن مصادقة الشبان فى البيوت انتظارًا لأمل أصبح لا يجىء الآن إلا نادرًا، فماذا يريد هذا المجتمع يا سيدى أن نفعل لكى نحصل على نصيبنا العادل من الحياة؟

قد كانت هناك فى الماضى "وسيطات" محترمات يعرفن بنت الأسر

ويسعين لزواجهن من الشباب المحترمين، وطالما تمت على أيديهن زيجات موفقة، لكن العصر يا سيدى أصبح يستنكر هذه الطريقة فى الزواج ويعتبرها شيئًا متخلفًا! ورغم ذلك لم يقدم لنا البديل الصحيح.. أفلا ترى معى أن إعادة نظام الخاطبة يمكن أن يسهم فى حل مشكلة حساسة لدى جيل كامل من الفتيات اللاتى يواجهن هذه المشكلة.. ومشكلة أكثر حساسية لدى آباء وأمهات لا ينغص عيشهم الآن سوى انصراف الشبان عن الفتيات المحافظات إلى الفتيات المودرن اللائى يصنعن زيجاتهن بأيديهن!.

إننى أكتب إليك لتطالب معى بإعادة الخاطبة.. ولتؤكد للجميع فائدتها فى هذا الزمن القاسى فهل تفعل وبغير أن تسخر منى؟.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

إن رسالتك يا آنستى لا تثير السخرية وإنما الألم؟ وما تناقشينه فيها هو مشكلة حقيقية من مشاكل هذا العصر. لكن أسبابها لا ترجع إلى اختفاء نظام الخاطبة ولا إلى انسياق الشباب وراء عواطفهم كما تقولين، فالمشكلة أكبر من ذلك بكثير.. وترتبط ببنيان المجتمع نفسه الآن.. وبمتاعبه الاقتصادية وبحيرته وعجزه أمام مشكلة المشاكل وهى شقة الزواج! إنها مشكلة شباب مطحون يا آنستى.. لا مشكلة منافسة غير عادلة فى سوق الزواج بين من يصنعن مستقبلهن بأيديهن ومن ينتظرن الغير ليصنعوا لهن هذا المستقبل كما تتصورين. ولو استخدمنا خاطبة "اليكترونية" تستخدم الكمبيوتر فى التوفيق بين راغبى الزواج فلن تستطيع أن تحل هذه المشكلة بمجهودها وحدها، وإنما سوف تحلها فقط بشائر الانفراج فى أزمة الإسكان على المدى البعيد. ومجتمعنا فى حاجة إلى "زعقة نبى" تحل له مشكلته الأساسية فى الإسكان لا إلى خاطبة تقليدية أو عصرية.. وعندها لن تتكرر هذه المآسى، ولا غفر الله لمن تبنوا فى مرحلة من المراحل "نظرية" إيقاف خطط الإسكان الشعبى والاقتصادى. وتشجيع الإسكان الفاخر!

باعتبار مجتمعنا من مجتمعات الرخاء! ألف لعنه على أوهام الواهمين.. وجناية المنفصلين عن الواقع على مجتمعاتهم!! فكل ما يعانيه مجتمعنا الآن من أزمة الإسكان وتفاقم أزمة الزواج.. وتحول شباب عديدين رجالاً ونساء إلى شباب "وقف" بلا أدنى أمل فى الزواج، هو نتاج وثمار هذه النظرية "النيرة" التى طلع علينا بها البعض فى بعض فترات حياتنا المظلمة.

ورغم تحسسك للسخرية من فكرة الخاطبة. فهى فكرة ليست شاذة فى النهاية وتمارس الآن فعلاً تطوعًا من الأهل والمعارف. وهى على أى حال أهون كثيرًا مما أتلقاه من أفكار أخرى أكثر عجبًا من فتيات جامعيات يواجهن نفس المشكلة كفكرة القرين المخفى الذى يصاحب الفتاة ويمنع خطبتها وزواجها كما تقول لى فتاة جامعية فى إحدى رسائلها!! أو فكرة أنها معمول لها عمل يمنعها من الزواج كما تقول لى جامعيات أخريات فى رسائل عديدة؟ وهذا كارثة أخرى لا تقل هولاً عن كارثة أزمة الزواج بين الشباب!

تحيرنى رسائل معينة أتلقاها من شباب فى عمر الزهور تتردد فيها دائمًا كلمات غريبة من نوع: "يكرهنى إخوتى بلا سبب". "لا أحد يحبنى فى أسرتى حتى أبى وأمى" "لا أحد يشعر بى فى أسرتى فكل منا مشغول بنفسه عن الآخرين" "أريد أن أسافر بعيدًا لكى لا أرى أحدًا من أفراد أسرتى" إلى آخر هذه العبارات المؤلمة.. وأتوقف أمام هذه الظاهرة متفكرًا ومنزعجًا فى الوقت نفسه! صحيح أن صغر السن يطبع أحيانًا أحكام الإنسان بطابع انفعالى لا يخلو من قدر كبير من المبالغة والتوهم، وإن مثل هذه المشاعر ترتبط غالبًا بسن المراهقة وهى سن الأوهام والوساوس والشعور الزائد بالذات، إلى حد يسمح بكثير من التصورات غير الصحيحة، لكنى رغم ذلك لا أستطيع أن أتجاهل ارتفاع نسبة هذا النوع من الرسائل فى بريدى كمؤشر لظاهرة لا أستطيع الحكم عليها بسهولة.. لكن أبسط ما يقال عنها إنها تعكس إلى حد كبير جفاف العلاقات الأسرية وخلوها من الدفء الإنسانى فى حالات عديدة.. ولربما يستطيع الخبراء أن يفسروا لنا هذه الظاهرة.. وأسبابها.. وإلى أى حد ترتبط بطبيعة العصر الذى نعيشه والذى ينكفىء فيه كل إنسان على ذاته غالبًا، أو بتسلل وانتشار قيم الفردية والذاتية.. وعلاقات الغابة إلى حياتنا، فمن المؤلم أن يحمل

بعض الشباب هذا الإحساس المدمر لأقرب الناس إليهم.. وأن يعيشوا أجمل سنوات عمرهم وهم يعانون الإحساس "بالنفى" داخل مجتمعاتهم الصغيرة.. كالزائدة الدودية بالنسبة لجسم الإنسان.. كما أنه من المحزن أيضًا أن يشعر أحد بأنه "عبء".. على أسرته وليس "عضوًا" فيها له ماله من حقوق وعليه ما عليها من واجبات، فهذا الإحساس الخطير هو سبب العديد من الكوارث التى يرتكبها بعض "المنفيين" داخل أسرهم من هؤلاء الشباب. ولقد كنت أتردد طويلاً فى نشر أمثال هذه الرسائل حرصًا على العلاقات الأسرية.. لكنى قررت أن أنشر هذه الرسالة لأنها تلقى ضوءًا على خطأ خطير من أخطاء التربية يفتح الباب بغير شك لمثل هذه المشاعر المدمرة.

تقول كلمات الرسالة التى تلقيتها من طالبة جامعية: قد تبدو مشكلتى هذه مؤلمة للبعض، وقد تبدو تافهة فى نظر البعض الآخر، لكنها على أى حال مشكلة حياتى التى تؤرقنى.. والمشكلة يا سيدى ببساطة شديدة أننى طالبة بالسنة النهائية بكلية التربية وعمرى الآن ٢١ سنة، أى أننى بلغت سن الرشد منذ شهور.. ومع ذلك فإننى مازالت إلى الآن أضرب. يضم الألف. ضربًا مبرحًا من أمى عادة ومن أبى فى بعض الأحيان. طبعًا تتعجب لهذه المشكلة.. لكنها حقيقية فمنذ وعيت وأنا أضرب ضربًا مبرحًا وبكل الوسائل.. والتى تضربنى هى أمى غالبًا.. وعندما كنت فى الصف الأول الابتدائى وفى الصف

الثانى الإبتدائى كنت أضرب بخبط رأسى فى الحائط بعنف، وفتحت رأسى مرتين، وكانت أمى حين تطلب منى عمل شىء فأرفض لطفولتى أو أنسى كانت تضربنى بخرطوم مياه، بعد تكتيفى فى أرجل المائدة ولا ترحمنى وهكذا استمرت حياتى.. وقد اعتقدت إنه عندما أتقدم فى دراستى فإنها سوف تبعد عنى ولكن للأسف لم يحدث ذلك فحصلت على الإبتدائية بمجموع ٩٥٪ واستمرت أمى فى ضربى! ولم أستطع أن أشكو لأحد لأننى كنت أخجل من أن تعرف صديقاتى أننى أضرب بالخرطوم وبرجل الكرسى أحيانًا.. وجاءت مرحلة الدراسة الثانوية وثقلت همومها لأنها صاحبت بداية مرحلة المراهقة ولم تقف أمى بجوارى لكى أعبر هذه المرحلة الحرجة بسلام، وعندما شاهدتنى أرد تحية أحد جيرانى فى العمارة خلال مروره بى فى الشارع... أخبرت أبى الذى ضربنى ضربًا رهيبًا، وصبرت إلى أن ظهرت نتيجة الثانوية العامة وكنت أتمنى أن أحصل على مجموع كبير لألتحق بجامعة خارج مدينتى وأبعد عن أسرتى.. وعاهدت نفسى لو تحقق ذلك ألا أزور أسرتى طوال العام الدراسى ولا مرة واحدة!.. لكن آمالى لم تتحقق.. فالتحقت بكلية التربية فى نفس مدينتى، واستمر عذابى وبدأت أمر تعيرنى بأننى لم أحقق آمالها فى الالتحاق بالجامعة.. بل وبدأت تضربنى لأننى لم أخطب ولم أتزوج وتقول لى إننى "وحشة".. مع أنى والله العظيم لست دميمة.. فأنا متوسطة الجمال..

لست بالجميلة ذات الشعور الذهبية، ولست بالدميمة وإنما... وسط.. ولكن أمى لا ترحمنى.. وتعذيبها لى يزداد مع السنين.. وأنا أكتب لك هذه الرسالة اليوم الجمعة عقب قراءتى لمأساة بريد الجمعة الأخيرة وظهرى ما زال يؤلمنى بآلام شديدة. ففى اليوم السابق ضربت ضربًا مبرحًا.. وأين؟ على عمودى الفقرى! وأنا فى السنة النهائية من الدراسة العليا وعمرى ٢١ سنة. وأضرب ودائمًا على ظهرى هل تستطيع أن ترشدنى إلى حل.. إن الحل الذى كنت ألجأ إليه قبل ذلك هو أننى كنت عندما أخرج من البيت أنسى ما حدث لى بداخله وأضحك وأمرح مع زميلاتى وكل من يشاهدنى لا يتصور أننى أعانى من كل هذا العذاب..

ولقد فكرت فى الانتحار.. لكننى محجبة فهل أموت كافرة.. وفكرت فى الهرب من البيت لكن من سيغفر لى إقدامى على ذلك ومن سيفهم ظروفى.. فارشدنى إلى الحل..وقل يا صديقى الذى لا أعرفه ماذا أفعل.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

انتهت كلمات الرسالة.. فماذا أستطيع أن أقول لصاحبتها! إن الكلام غير مجد فى رأيى مع مثل هذه الأم حجرية المشاعر، ولا مع مثل هذا الأب، لكنى مع ذلك أقول لهما إن الضرب لم يكن فى يوم من الأيام هو الوسيلة المثلى للتربية ولا الوسيلة الناجحة للتقويم والإصلاح.. فضلاً عن آثاره السلبية على نفسية الأبناء التى تخلق فى النهاية أبنًا جبانًا .. كذوبًا.. غير أهل للثقة ولا للاعتبار فإنه يولد فى نفس الأبن إحساسًا داخليًا بالتحدى يدفعه غالبًا للإصرار على الخطأ مع مداراته كنوع من الانتقام النفسى ممن آذاه نفسيًا وبدنيًا.. وهو أيضًا يغير من معايير الخطأ والصواب لديه فيصبح الخطأ فى تقديره هو أن "يعرف" الآخرون ما يفعل لا أن يرتكبه.. ويصبح الصواب هو ألا يعرف أحد بما يفعل لا أن يتوقف عنه، وفى هذا اختلال خطير للقيم فضلاً عن أن اعتماد أسلوب الضرب فى التربية عمومًا يبلد المشاعر ويميت الإحساس.. بدليل أنك تضربين فى الداخل وتضحكين فى الخارج بسعادة مرضية والشاعر يقول: "ما لجرح بميت

إيلام" وقد ماتت مشاعرك تحت وطاة رجل الكرسى ومع كثرة خبط الرأس فى الحائط ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا ذنب لك فى ذلك.. فالمسئولية مسئولية أمك سامحها الله. والحق أن التربية قضية لا عذر فيها لأب أو أم.. فإذا كان مستوى البعض لا يسمح له بالاطلاع على أحدث نظريات التربية فلدينا نظرية لا تحتاج إلى دراسة ولا إلى بعثات دراسية.. ومع ذلك فهى أكثرها حكمة ورشادًا وهى النظرية البسيطة التى أرسى قواعدها الرسول الكريم وتتلخص فى هذه الخطوات الحكيمة:

لاعب ابنك سبعًا.. وأدبه سبعًا.. وصاحبه سبعًا.. ثم أترك حبله على غاربه.. أى دعه لشأنه ولكن لا تحرمه من رعايتك ونصحك عند الضرورة.

ترى كم منا "اكتشفوا" هذه "النظرية" الصالحة على مر الأجيال فى التربية! وكم منا يعمل بهديها وكم تنبه إليها وسط زحام النظريات والمناهج؟

على أى حال قولى لأمك يا صديقتى إنه قد آن الأوان لأن تتوقف عن تطبيقاتها العجيبة"لنظرياتها" الخاصة فى التربية وساعديها على ذلك بالالتزام الدقيق بالسلوكيات السليمة فإن لم تستجب.. ففى مجتمعات أخرى تعانى من كل أمراض العصر... تعتبر الدولة الطفل

مواطنًا تلتزم بحمايته حتى من أسرته إذا أساءت التصرف معه.. وفى هذه المجتمعات يساءل الأب... وتساءل الأم أمام قاض مختص عن أسباب قسوتها التعليمية" على أبنائها.. فإذا ثبت له عدم صلاحيتها لرعاية أطفالها فإنه ينزع الأطفال منهما ويودعهم دور التربية التابعة للدولة والتى تتوافر فيها كل سبل الرعاية الإشراف العلمى والاجتماعى على الأطفال.. ويشقى الأباء والأمهات بعد ذلك لإثبات "صلاحيتهم.. لرعاية أبنائهم" لكى تسمح لهم السلطات مرة أخرى باستعادة أبنائهم، فما بالنا نحن بالقسوة الوحشية التى تسمح بضرب فتاة رشيد على عمودها الفقرى كل حين! على أية حال لابد من طريقة لإيقاف هذا الأذى ولو كنا فى مجتمعات أخرى لقلت لك إن مثل هذه المشكلة هى من صميم اهتمامات أساتذتك فى الكلية.. واهتمام الاخصائيين الاجتماعيين فيها.. ولكنى أعرف أننا هنا لا يعرف الأساتذة الطلبة.. ولا يعرف الطلبة الأساتذة لكى يبثوا لهم مشاكلهم الخاصة.. فاستعينى بالأهل لإقناع أمك وأبيك بخطأ هذا الأسلوب.. وواصلى الصبر والاحتمال إلى أن تتخرجى وسوف تتغير معاملة أسرتك لك عقب التخرج والعمل غالبًا لأن بعض أسرنا بكل أسف تحدد مستوى تعاملها مع أفرادها بمدى استقلالها الاقتصادى عنها! وأسرتك فيما أتصور مازالت تعاملك كعبء عليها.. وسيزول هذا العبء بعد العمل... فاصبرى قليلاً وركزى جهدك فى الدراسة إلى أن تزول هذه الغمة.. وقلبى معك!

أفتح بريدى أحيانا فألمح بين ركام المآسى.. نقط ضوء مشعة بالأمل.. فأسعد بها كما يسعد المتلهف إلى السعادة بلحظة صفاء وسط هجير الحياة ثم أسرع لأضعها بين يدى قراء البريد ليشاركنى الآخرون مشاعرى.. وفى هذا الأسبوع تلقيت فى بريدى هذه الرسالة.

أكتب هذه الرسالة لأنى أحس بأن علىَّ دينا ينبغى أن أؤدية للحياة ولهذا الباب ولقرائه على وجه الخصوص. وقبل أن أتركك للحيرة سأبادر بأن أقول لك إننى الشاب الذى كتب لك منذ حوالى ١٠ شهور يحكى قصة حبه وزواجه من فتاته وكيف بنينا معا وبمعجزة عشنا الصغير طوبة طوبة.. رغم ضيق الامكانات، ثم ابتسمت لنا الدنيا فسافرنا للعمل فى إحدى الدول العربية لمدة عامين عدنا بعدهما لمصر.. طائرين على جناح السعادة بعد أن عرفنا الراحة أخيرا بعد الشقاء.. واستكملنا إعداد عشنا واشترينا كل ما حلمنا بأن يضمه بيتنا. واشتريت أنا سيارة صغيرة، واستعددنا لأن نستمتع بثمرة كفاحنا، فإذا برفيقة كفاحى تسقط فجأة مريضة بالكلى وإذا بأحلام السعادة تثقلها الهموم.. ونبدأ رحلة العذاب وزوجتى الرقيقة الشابة تستسلم للمرض وتعجز عن العمل وتحيا على

غسيل الكلية مرتين كل أسبوع، والأطباء يجمعون على ضرورة زرع كلية لها، فأتقدم لزرع كليتى فى جسمها فتأتى نتائج التحليلات مخيبة للآمال. ثم أتعذب فى البحث عن متطوع إلى أن أفكر فى الكتابة إليك، ولقد نشرت رسالتى بعنوان "أيام السعادة"، وتلقيت عن طريقك بعدها استجابات عديدة من قراء بريد الأهرام، للتبرع بالكلية لإنقاذ زوجتى.. ولعلك تذكر أن عدد المتطوعين من أبناء مصر الخير والعطاء قد بلغوا ٤٢ متطوعا، أعطيتنى أسماءهم وعناوينهم فبدأت الاتصال بهم فرأيت من خلال هؤلاء الشباب نماذج من البشر ما كان لى أن أراها أو أطلع عليها أو أعلم بوجودها فى الحياة، لولا أن وضعتنى الأقدار وسط هذه التجربة الأليمة فرأيت من يقبلون إجراء هذه الجراحة بلا هدف.. سوى الرغبة فى إسعاد أسرة صغيرة ورأيت منهم هذا الشاب الذى شارك فى حرب أكتوبر، ولا تزال فى جسمه آثار باقيات لعدة جراحات خطيرة من أثر الاصابة، وهو يصر رغم بساطة حاله على أن يدفع من جيبه ثمن التحاليل المبدئية اللازمة لاختبار صلاحية الكلية للزرع.. ورأيتنى أرفض ذلك فيصر إصرارا عجيبا حتى ليشكونى إليك بسبب ذلك! ثم حين تجىء التحاليل مؤكدة عدم صلاحيته يعود ليشكونى إليك بأنى غير متحمس لإعطائه هذه الفرصة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالتبرع بكليته لزوجتى!

رأيت هذا الشاب، ورأيت نماذج عديدة لشبان يحملون فى جوانبهم قلوبا خيرة مطيعة لله وراغبة فى الخير.. حتى لتضحى بأجزاء من جسمها لإنقاذ من لا يعرفونها.. ومن لم يسمعوا بها إلا من رسالتى فى بريد الجمعة، ورأيتنى أمضى الأسابيع أطوف بكل هؤلاء المتطوعين على معامل التحليل.. فأجرى لهم التحليلات المختلفة.. ثم تأتى النتائج بمفاجأت لم يتصورها عقلى فى البداية.. فالمتطوعون جميعا غير صالحين بكل أسف لنقل الكلية لزوجتى الشابة. وليس هناك من يصلح لذلك سوى الشاب الذى عرفته فى بداية رحلة العذاب عن طريق أستاذة التحليلات والذى يطلب تعويضا معينا عن تضحيته، والذى أشرت إليه فى رسالتى الأولى.

وبعد مشاورات عديدة مع الأطباء.. وبعد أن أصبحت شبه متفرغ لإنقاذ زوجتى. عدت من جديد للاتصال بهذا الشاب ووضعت الأمر من جديد بين يديه، وأشهد أنه بعد أن عرف كل هذه التفاصيل كان متفهما إلى أقصى حد وأصبح صديقا عزيزا لى واستقر رأى الأطباء على أن نبدأ المرحلة الجديدة.. فى مركز زرع الكلى بجامعة المنصورة، وأكتشفت أن هناك رحلة طويلة أيضا للإعداد للعملية ومررنا بكل المراحل إلى أن جاء اليوم المشهود.. ودخلت زوجتى غرفة العمليات فى لحظة واحدة مع الشاب المتطوع.. كل منهما على مائدة عمليات وحول كل منهما فريق من الأطباء، أما أنا فقد كنت عند دخولها على

باب الغرفة يدى فى يد زوجتى وقلبى معها.. وكان الشاب على السرير المتحرك مستسلما وخائفا أيضا مثلى.. وأشهد أنى قد أحببته فى هذه اللحظة أكثر من أى وقت آخر ودعوت الله له من قلبى أن يوفقه فى حياته وأن يحقق له كل أحلامه.. وحين أذن "الموكب" بالتحرك لدخول الغرفة انحنيت فقبلت زوجتى الغائبة عن الوعى.. واستدرت فقبلت هذا الشاب ودعوت له كثيرا ثم غاب الاثنان خلف الباب المغلق.

وجلست أنا على المقعد القريب فى الممر.. وأخرجت مصحفى وبدأت أقرا فيه، ودموعى تنساب منى فتسقط على الصفحات وتحجب عنى السطور. وكل من حولى من أحبائى وأحباء زوجتى الذين عاصرونا خلال أيام السعادة وأيام الشقاء يتمتمون بآيات القرآن.. أو يتظاهرون بالمرح ويحاولون شد أزرى.. بعبارات التطمين والتشجيع..

وبقيت على هذه الحال ٦ ساعات كاملة مرّت علىَّ كأنها قرون، ثم فتح الباب وخرج رئيس فريق الأطباء مرهقا.. مجهدا، فنهضت من مقعدى كأنما لدغنى ثعبان.. ونظرت إليه وروحى كلها معلقة بشفتيه فإذا بأساريره المتعبة تنفرد ببطء ويقول لى شبه هامس: مبروك.. فلم أشعر بنفسى وأنا أندفع إليه أقبله وأحاول احتضانه.. وهو يقول لى:

أهدأ ويضحك بسعادة.. وإذا بالفريق كله يخرج من الغرفة ضاحكين فرحين كأنهم نجحوا فى امتحان صعب، وكلهم سعداء كما لو كانت المريضة شقيقتهم أو زوجتهم.. وكلهم يهنئوننى وأنا أدور وسطهم أقبل كل من يقع فى طريقى منهم وفى أى مكان: الوجه أو الرأس وهم يضحكون وينصحوننى بأن أتمالك نفسى لكن كيف أهدأ؟ وأحدهم أكثر مرحا يلتفت إلى أهلى ويقول "مفيش زغرودة حلوة فتنطلق الزغاريد مجلجلة فتكون آخر ما أعيه من الوجود لأنى لم أشعر بنفسى بعد ذلك إلا وهم يعملون على إفاقتى بالنشادر، وحولى تمتزج الضحكات بالدموع والجميع سعداء.. لكن أين زوجتى؟ وأين هذا الشاب الطيب! فاعرف أنها فى غرفة "الإفاقة" وأسرع إلى هناك، وأراها.. ويكون اللقاء بعد أن كنت قد ظننت أن "لا تلاقيا" كما يقولون.. وأذكر نعمة الله على.. فأسجد له شاكرا. ونمضى أياما فى المستشفى ثم نخرج ونبدأ بعد ذلك رحلة ما بعد الجراحة.. ففى كل أسبوع نسافر إلى المنصورة للفحص والمتابعة وتنفيذ مراحل علاجية ضرورية بعد الزرع.. ثم يتحسن الحال ويطمئن الأطباء قليلا فيجعلون موعد الفحص مرة كل أسبوعين.. ونستمر شهرين على هذه الحال.. ويزداد اطمئنانهم.. فتصبح الزيارة مرة كل شهر.. وهى المرحلة التى نعيشها الآن ومنذ أكثر من ٥ شهور، بعد أن عادت

السعادة إلى بيتى الصغير.. وبعد أن عادت الابتسامة إلى وجه زوجتى ووجهى.. وأصبحنا نخرج فى المساء لنتمشى على النيل كما كنا نفعل فى أيام السعادة وأصبحنا نزور الأقارب والأهل والأصحاب، وأسرة هذا الشاب الطيب الذى أصبح واحدا من أسرتى وأصدقائى.. وأخيرا عادت إلى عملها وعدت أنا أيضا إلى عملى بعد أن انصرفت عنه تقريبا طوال هذه المحنة.. والحمد لله كثيرا على كل شىء.. إن فى الدنيا خيرا كثيرا لكننا لا نراه إلا فى الشدائد.. وفى قلوب أبناء بلادنا نبع لا ينضب للحنان والعطاء والمشاركة، لكننا لا نكتشفه إلاَّ فى الملمات.. وأنا أكتب لك هذه الرسالة لتشكر عنى كل هؤلاء الذين عرضوا على التبرع بكليتهم لزوجتى، وطافوا معى بمعامل التحاليل وتركوا أعمالهم من أجلى بلا سابق معرفة، ولتشكر عنى هذا الشاب الطيب الذى أراد الله على يديه الخير لى.. ولزوجتى، ولتشكر عنى كل هؤلاء الأطباء العظام الذين وقفوا بجوارنا فى محنتنا فى القاهرة والمنصورة والذين بذلوا أقصى ما فى جهدهم لإنقاذ حياة "عروسة بريد الأهرام" على حد تعبيرهم بعد أن قرأوا جميعا قصتها فى بريد الجمعة.." وأكتب اليك لتقول نيابة عنى.. لكل من يعانون المحنة التى عانيتها: لا يقنطوا من رحمة الله.. فلقد وسعت رحمته كل شىء. وأبواب الأمل مفتوحة للجميع كما أن فرج الله قريب.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

لمست قلبى مرتين.. مرة فى رسالتك الأولى وأنت تروى لى شقاءك مع رحلة العذاب التى فاجأتك فى بداية حياتك، ومرة فى رسالتك الثانية وأنت تحكى لى عن فرحتك الصادقة بنجاح الجراحة وعودة طائر السعادة إلى عشكما الصغير ويالها من فرحة من القلب يا صديقى! تستحقها بكل تأكيد وتستحق ما هو أكثر منها فلقد شقيت كثيرا وكافحت كثيرا وآن "للمجاهد" أن يستريح بعد طول العناء، وآن لعشكما الصغير الذى شهد هذه العاصفة العاتية، أن ترفرف عليه نسائم الراحة والهناء من جديد. إنى سعيد جدا بسعادتك.. وسعيد بشفاء عروسك الشابة الرقيقة التى امتحنتها الدنيا فى فجر حياتها بكل هذه الأهوال، وأتمنى لكما حياة سعيدة مديدة بإذن الله.

كما أنى سعيد أيضا بهذه الرسالة التى تقدم لى دليلا جديدا على ما أومن به عن جوهر هذا الشعب الصابر المكافح.. الذى تطغى عليه أحيانا صعوبات الحياة فتخفى بعض ملامحه خلف قناع مزيف.. لكنها لا تمحو وجهه الأصيل المشرق بالخير والعطاء أبدا.. وإلا فقل لى بربك.. فى أى مكان آخر كان من الممكن أن يجد معذب مثلك ٤٢

إنسانا على استعداد لاقتطاع أجزاء من أجسامهم لتقديمها هدية لمن لا يعرفونه، لإسعاد قلبين وإنقاذ أسرة صغيرة من العذاب.. وبلا أى مقابل؟ وأين يمكن أن نجد مثالا لهذا الشاب الذى يستحق كل احترام والذى كان يكتب إلى ليشكو لى من أنك "أهملت" رغبته فى التبرع لزوجتك بكليته ولم تحقق له رغبته، وهو المصاب فى الحرب والذى تعذب من قبل بعدة جراحات؟ وأين كان يمكن أن نجد إنسانا بسيط الحال كهذا الشاب يرهق نفسه بدفع أجور التحاليل الطبية استعدادا للتبرع بكليته، ويعتبر إصرارك على الرفض إهانة له ويرفض رغبتك بإباء! وهو مواطن لامورد له سوى معاش عجز بسيط قد ينفقه آخر على وجبة عشاء واحدة فى أحد الملاهى!

وأين يمكن أن نجد أمثال هؤلاء البشر الطيبين الذى يجودون بسماحة لا نظير لها بما يملكون.. وقد لا يملك بعضهم شيئا؟ إننا قد نكون شعبا من الفقراء، لكننا بالتأكيد شعب من الأغنياء بأمثال هؤلاء البسطاء الذين على استعداد للعطاء دائما.. وقد يكون العطاء بأعضاء بشرية من أجسامهم؟ وقد نكون شعبا من الفقراء.. لكننا بالتأكيد مازلنا أغنياء بهذه الخصال والفضائل التى يعتبرها البعض من علامات "التخلف"! كالتمسك بالقيم الدينية.. والعاطفية.. والميل للعطاء والمشاركة بأقل الإمكانيات المتاحة.. إنه شعب عظيم رغم كل شىء يا صديقى لم يقدره أحد حق قدره بكل أسف.. ومثله لن يضام

مهما جرت عليه عوادى الزمان، ولابد أن يحصل يوما على نصيبه العادل من الحياة.

آسف لقد سرحت بعيدا لكن رسالتك أهاجت مشاعرى.. وأثارت لدىَّ كل هذه التأملات وإنى سعيد بها حقا.. وسعيد بأن رسالتك ستفتح أبواب الأمل أمام كثير من المعذبين.. وستقول لأمثالكما بالدليل: إن فرج الله قريب وستقول أيضا: إسألوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج، ولقد سألت الله ياصديقى فأعطاك من فضله.. وانتظرت الفرج فأتاك فأهنأ بما أنعم الله عليك.. ولا تنس حق الحياة وحق هؤلاء البشر عليك.. فاخدم الحياة بكل ما تستطيع.. وأخدم البشر بما يستحقونه منك من الوفاء والإخلاص، وخفف عن الآخرين ولو بالكلمة الطيبة، وتذكر أنك مدين للحياة وللبشر بدين كبير فأد دينك لهم بالعطاء والحب للآخرين، وبخدمة البشر ومساعدة من يحتاجون إلى عونك والسلام.

هذه مشكلتى يا سيدى.. إننى شاب فى الثلاثين. ظروفى الاجتماعية عادية لا أشكو من مرض ولا من حاجة، لكنى أشكو من شىء خاص جدا يتملكنى ويفسد على حياتى، هو الكذب نعم الكذب يا سيدى ولا تضحك منى... فإنه مأساتى، فأنا إنسان كذاب جدا ولا أعرف لماذا يجرى الكذب فى عروقى ويختلط بدمى وأحبه جدا وأعشقه جدًا وأتعذب به جدًا؟

إذا سألتنى أين كنت الآن...؟ وقد كنت مثلا جالسا مع صديق على مقهى قلت لك بلا أى سبب وبغير أن أفكر كنت مع فتاة جميلة فى السينما لماذا لا أعرف؟ إذا سألتنى ماذا تعمل وكنت لا تعرفنى قلت لك أنا صاحب شركة للاستيراد والتصدير، والحقيقة إننى موظف بدبلوم التجارة. قد تقول إننى أدعى لكى أحقق مكسبا... وياليته كان كذلك فالمصيبة أننى أكذب بلا أى سبب، أو لأى هدف أرجوه حتى وأنا بين أصدقائى فى العمل، أفخم دائما بلا سبب فى ممتلكات الأسرة وفى بذخ حياتنا مع أن هذا لن يقدم ولن يؤخر.

لقد فسخ أهل خطيبتى خطبتى لها بعد أن اكتشفوا أننى أحمل دبلوم التجارة، وليس بكالوريـوس التجـارة كما قلت لهم

عند التقدم لهم، رغم ما كان يجمعنا من حب أنا وخطيبتى، ورغم ما كان يجمعنى من حب واحترام متبادل مع أهلها، لقد قال لى والدها إننى لا أرفضك لأن مؤهلك هو الدبلوم لكنى أرفضك لأنك كذبت فى ذلك وهذا يعنى أنه لن يصدقنى فى أى شىء آخر.

قد تقول لى لماذا تكذب وأنت تعلم أن الكذب حرام وأن عقاب الله ينتظرك؟ فأقول أعرف ذلك بل إننى والله العظيم أحافظ على فروض دينى ورغم ذلك لا أستطيع أن أتوقف عن الكذب، لقد تعذبت بهذه الآفة حتى ذهبت إلى طبيب نفسى وخضعت للعلاج فترة نجحت خلالها فى الكف عن الكذب، وعرفت أثناءها لأول مرة طعم الحقيقة، لكننى للأسف صنعت فشلى بلسانى بعد ذلك وحطم حياتى. فخذ بيدى يا صديقى وأعرضنى على أحد الأطباء من قرائك لعلى أجد نجاتى على يديك، وأنا مستعد للحضور إلى بريد الأهرام إذا دعوتنى والسلام عليك.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

إن الاعتراف بالخطأ هو أول خطوة فى طريق الصواب، لذلك فأنا أحيى شجاعتك فى طلب العلاج وأرجو أن تصمد له لأن أمامك رحلة علاج طويلة، على أنى آخذ عليك "قولك" إنك تكذب بلا هدف!، فهذا القول نفسه "كذبة" يا صديقى، لأنك تكذب بهدف الادعاء وتفخيم الذات وادعاء ماليس لك وما تقصر إمكانياتك عن تحقيقه، فأنت تدعى مثلا الحصول على شهادة جامعية وأنك صاحب شركة استيراد... وتجيب كل من يسألك أين كنت... أنك كنت فى السينما مع فتاة جميلة، وتبالغ بين زملاء العمل فى وصف البذخ الذى تعيش فيه، وكل هذه أكاذيب موجهة و"هادفة" وهدفها هو تضخيم شخصيتك وإبهار الآخرين بها! إنها عقدة المظهرية والادعاء والغرور ولابد أن تعرف ذلك إذا كنت راغبا حقا فى العلاج، والمؤسف حقا أن كثيرين يستهينون بجريمة الكذب ويرونها شيئا هينا لا يكفى لإسقاط احترام إنسان، غير مدركين بذلك أنه أخطر آفة خلقية يمكن أن تصيب الإنسان لأن الصدق هو جماع القيم الخلقية، فمن افتقده فقد

افتقد الأخلاق جميعها، والمؤلم أن مجتمعاتنا تعانى من انتشار أمثالك فى مواقع عديدة... وأننا لم نفهم بعد حتى الأن مغزى أن الشعوب المتحضرة تصدق عادة الإنسان فى كل ما يقوله لهم فى البداية لأنهم يفترضون فى كل إنسان الصدق... إلى أن يضبط "متلبسا" بكذبة واحدة فقط! فيسحبون منه فجأة كل احترامهم إلى الأبد ويرفضون تصديقه فى شىء حتى لو صدق! مع أن هذا الصحيح وهو المفروض!

لقد أعجبنى جدا تصرف والد خطيبتك، لأن من يكذب فى البداية سوف يكذب فى النهاية وسوف تكون حياته سلسلة من الأكاذيب، ولا شك أن لظروف نشأتك تأثيرا كبيرا على إدمانك لهذه الآفة المخجلة التى تفقد الإنسان الاعتبار، على أنى قد أعذرك قليلا إذا تناولت حالتك فى إطار ما جرى فى مجتمعاتنا خلال حقبة طويلة، حين أصمت آذاننا لفترات طويلة مؤثرات الكذب العام الذى ساد حياتنا حتى اهتز المثل الأعلى واهتزت القيم لدى الكثيرين، وأصبحنا نرى من ينبغى أن نتعلم منهم السلوك والقيم يكذبون علينا... فلا يستوقفهم أحد ليقول لهم تذكروا جنايتكم على أجيالنا الجديدة التى تراكم وأنتم تكذبون دون أن يهتز لكم رمش! وأصبحنا فى فترات أخرى نسمع من يسمى الكذب "دبلوماسية" أو حسن تصرف، ومن

يسمى الصدق "تزمتا" أو ضيق أفق و"حنبلية" إنها مصيبة مجتمع جنى عليه من كان ينبغى أن يكونوا مثله العليا لفترات طويلة... فلا غرابة أن يسود الكذب ويتراجع الصدق، لكن لولا عاصم من الدين ومن القيم، نرجو أن يتمكن من إنقاذ أجيالنا الحالية وإلى اللقاء.





واحة الكتب

"أشعر أحيانا وأنا أقرأ رسائل بريد الجمعة أنك تحاول أن تقول من خلال رسائل القراء للبعض: هيا نستفد من تجارب غيرنا فى مواجهة الحياة... فنتعلم منهم كيف واجهوا مشكلاتهم؟... وكيف تحملوا آلامهم؟. فإن لم يكن ذلك، فلنعرف على الأقل أن حياتنا أكثر احتمالا من حياة غيرنا، وأن ما نظنه أحيانا نهاية الحياة ليس سوى أحد متاعب الحياة العادية بالقياس إلى متاعب وآلام الآخرين... وبهذا الإحساس وجدتنى أكتب لك هذه الرسالة لأروى لك قصتى لعلك تجد فيها بعض ما يستحق النشر، وبعض ما يفيد من هن فى مثل حالى:

فلقد بدأت حياتى الزوجية منذ حوالى عشرين عاما مع شاب رائع، تركت التعليم من أجله وانقطعت عن الدراسة لأتفرغ له ولبيته. وكنت سعيدة بقرارى وكان هو أكثر سعادة، فلقد كان مثالا للزوج الذى تتمناه أية فتاة. كان شابا وسيما ممشوق القوام رياضيًا، بل بطلاً من أبطال الرياضة فى لعبة التنس. وكان ضابطا بالقوات المسلحة شهما ومرحا ومحبا لى ولبيته، مضت حياتى معه كأسعد ما تكون الحياة الزوجية.. لم نختلف يوما على شىء... ولم تتعارض أراؤنا فى شىء، يخرج

فى الصباح المبكر إلى عمله ويعود فى الظهر فنتناول غداءنا معا ثم نرتدى ملابسنا ونخرج إلى النادى ليمارس تدريباته فى ملعب التنس، فلا أجد متعة فى أى مكان بالنادى سوى فى الجلوس على ترابيزة صغيرة بجوار خط الملعب أرقبه وهو يجرى ويضحك ويداعب رفيق اللعب. ثم يأتى إلى كل بضع دقائق ليشرب رشفة ماء أو يجفف عرقه ويبادلنى كلمة سريعة لابد أن تنتهى بكلمة حب أو بدعابة من دعاباته، ثم ينتهى اللعب ويدخل الحمام ليغير ملابسه ويعود ليصطحبنى إلى حديقة النادى أو إلى أحد دور السينما أو نعود مشيا على الأقدام إلى البيت متماسكى الأيدى لا نحس بالدنيا من حولنا.

وفى الأمسيات كنا نزور الأهل والأصدقاء، أو نستقبلهم فى بيتنا ونرتب لأجازة الصيف ونحن فى الشتاء، ونرتب لأجازة الشتاء ونحن فى عز الصيف... فقد كنا نحس أن الدنيا بين أيدينا ونحن شباب أمامنا الحياة الواسعة، ثم جاء الأبناء فاكتملت سعادتنا وكانا طفلين جميلين، ولم يتغير نظام حياتنا إلا فى أضيق الحدود، فأصبحت أتفرج عليه وهو يلعب ومعى صغيراى أحدهما يجرى ويلعب، والآخر فى عربته الصغيرة، وزوجى الحبيب يجرى ويتحرك، وقد خصه الله بمنة لا ينالها الكثيرون هى حب الناس، فكان لا يتحرك إلا فى مجال تشرق فيه الوجوه عند مرآة من الصبى الصغير الذى يجمع كور التنس إلى البواب إلى المدرب إلى رفاق النادى والأهل والأصحاب... وكنت

أحس بالحب للجميع لأنهم يحبونه معى، وأدعو الله أن يمتعه دائما بحب الناس الذى كان يستحقه لنقاء سريرته وطيبة قلبه وشهامته.

إلى أن تغيرت حياتنا وصحوت من حياتى اللامعة المبهجة ذات يوم لأجده قد غاب واستشهد رحمه الله فى معركة أكتوبر، وغاب القمر الذى كان يضىء سماء حياتى، وقدر لى أن أقطع عهدا توافرت لى فيه أسباب الرخاء والدعة إلى عهد أواجه فيه مضايق الحياة ومزالقها.

ولم يكن أمامى مفر... فإما أن أواصل الحياة وأودع عهد الرخاء والدعة والأطمئنان، وأن أخوض معركتى بلا سلاح سوى إرادة الحياة... وإما أن استسلم وأنهار وأمضى العمر أندب حظى وأجتر ذكريات السعادة، فاستجمعت إرادتى بعد حين وقررت أن أواصل الحياة، فكرست حياتى لتربية طفلىَّ وتعليمهما، وقررت أن أتعلم معهما لأشغل كل فراغى بعد مغيب ضياء زوجى الراحل، وكنت قد حصلت قبل زواجى وتفرغى على دبلوم المعلمات، فالتحقت بالثانوى العام من أول خطوة وبدأت أستذكر دروسى، وتحول بيتى إلى بيت لـ ٣ طلبة أحدهم أنا.. نجلس معًا فى مكان واحد لنستذكر دروسنا وحددت لنفسى هدفا هو أن خير وفاء لزوجى الراحل هو أن يتعلم أبناه خير تعليم وأن أشربهما روح الفضيلة والأخلاق الكريمة، ومضت حياتنا فحصلت على الشهادة الثانوية والتحقت بكلية التربية،

وحصلت على الليسانس من قسم التاريخ والتحقت بالدراسات العليا، وحصلت على الماجستير فى علم النفس التعليمى بتقدير جيد جدا فى موضوع "أثر جنس المعلم على التفكير الابتكارى فى المرحلة الابتدائية" وأنا حاليا استعد للحصول على الدكتوراه. وفى نيتى أن أعمل بالتدريس لأخدم مجتمعى وأحقق ذاتى، أما أبنائى فلقد التحق أكبرهما بالجامعة وأصبح الآخر على مشارفها.

والحياة تمضى، وكثيرا ما توقفت لأسأل نفسى: هل كان ما فعلت هو الصحيح؟. فأتأمل حياتى وأتذكر حالى فى الأيام الأولى عقب انهيار الأحلام، وحالى اليوم، فأقول نعم لقد كان ما فعلت هو الصحيح.

وأتمثَّل كثيرا بقول الله سبحانه وتعالى: "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله. إن الله غفور رحيم" صدق الله العظيم. والسلام عليكم.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

أعترف اننى قد أصبحت من كثرة ما قرأت من مآس فى رسائل البريد ميالا للتشاؤم رغم إيمانى بالحياة! فطوال فترة قراءتى لهذه الرسالة وأنا أتوجس خيفة مما سوف تنبئنى به، وأتعجل السطور لأعرف ماذا جرى لمثل هذه الحياة الناعمة المترعة بالحب والتفاهم والسعادة، فلا يطول انتظارى بكل أسف وتجئ السطور لتخبرنى بما أتوقعه كلما أطالت رسالة فى بدايتها فى وصف حالة سعادة رائعة! إنها ليست قاعدة بالطبع لأننا اتفقنا منذ البداية بأنه لن يكتب إلى البريد إلا المهمومون بمشاكل تشغل حياتهم، وأنه ليس من المتوقع أن يكتب إلَىَّ أحد ليروى لى قصة سعيدة من البداية إلى النهاية، فلا غرابة إذن فيما روته الرسالة سوى أنى ربما كنت قد تمنيت أن يخيب سوء ظنى هذه المرة، وأن تطول سعادة كاتبة الرسالة إلى أقصى حد ممكن! فلم يخب بكل أسف وهيهات أن يفر الإنسان من قدرة، وأين المفر إذا أراد؟. على أنك يا سيدتى قد عوضتنى عن كل ذلك بقصة كفاحك بعد "مغيب القمر" التى تستحق كل الإعجاب والتقدير، والحق أننى دهشت قليلا لصلابتك ولقوة إرادتك اللتين كشفت عنهما رسالتك،

لأن مقدمتها قد رسمت لى عنك صورة رومانسية حالمة خشيت معها ألاَّ تنجحى فى مواجهة الحياة وحدك، وقد كنت تعيشين الحياة فى دعة وخمول، لكنها صادقة تماما النظرية التى تقول إن المحن تصنع الإرادة، وتخرج من أعماق الإنسان قدرته الكامنة على تحدى الصعاب. وهذا ما حدث معك والحمد لله. فلقد صهرت التجربة الإليمة شخصيتك كما تجلو النار الدر النفيس، فكشفت عن جوهر شخصيتك الحقيقية وهى شخصية دؤوب ذات إرادة قوية، فواجهت الحياة أو كما تقولين بتعبيرك الرائع "واصلت الحياة"..

وكان ضروريا أن تفعلى، وتحملت مسئوليتك بكفاءة، ونجحت فى أن تقودى سفينة حياتك وسط ظلام المغيب إلى أن وصلت إلى شاطئ الأمان، وحق لك أن تسعدى بأسرتك وبنفسك وإرادتك وحق لكثيرات فى مثل ظروفك أن يجدن فى رسالتك هذه المثل والعزاء والأمل فى غد أفضل.

وشكرا لك على رسالتك المفيدة هذه مع تمنياتى لك بالسعادة الدائمة إن شاء الله.

صاحبة هذه الرسالة هى يا سيدى صاحبة القصة أو المأساة التى نشرتها منذ ٩ شهور واخترت لها عنوانًا معبرا هو "فوق السحاب" فأنا الزوجة الشابة التى تقدم لها شاب رائع تزوجته خلال شهر واحد لإصراره على الزواج بأقصى سرعة، ثم عاشت معه أيام العسل طائرة فوق السحاب إلى أن ذهب إلى عمله فى اليوم الأول بعد الإجازة ثم عاد إلى البيت إنسانا آخر غير زوجى الذى تزوجته.

وعرفت فيما بعد وخلال عذابى الطويل أنه كان مرتبطا بفتاة أخرى تركته وتزوجت واعتقد أنها غدرت به، فتعرف بى وتزوجنى سريعا، ثم عاد إلى عمله فأبلغته صديقة لها بأنها عادت من شهر العسل وعلمت بزواجه فانتحرت، وطلبت إبلاغه أنها أُرغمت على زواجها وأنها لم تغدر به... ومنذ هذا اليوم فقدت زوجى.. ولم يعد هو الزوج الرائع الذى أحببته بجنون.. وتعذبت وأنا أحاول استعادته حتى أننى حاولت أن أكون صورة أخرى من فتاته لأعجبه.. بلا فائدة.. لابد أنك تذكرتنى الآن وتذكرت أنك نصحتنى بأن أكون نفسى لا صورة باهتة لأحد غيرى، وبأن أصبر على زوجى وأن أستمر فى محاولاتى لاسترجاعه، وأكدت لى أن محاولاتى سوف تنجح، وكانت آخر كلماتك لى هى "وسوف تنتصرين فى النهاية"!

وباختصار شديد فإنى أكتب لك لأخبرك أن ما توقعته قد حدث، وأننى انتصرت كما توقعت لى رغم أننى لم اكن أتوقع ذلك ولم أكن أشاركك تفاؤلك فلقد عملت بما نصحتنى به تماما، فصبرت على زوجى، وواصلت محاولاتى معه وكففت عن أن أكون أية إنسانة غيرى وغير نفسى وشخصيتى، وأنا أكتب لك قصة نجاحى لأنها قصة نجاح أخرى لبريدك.. فقد بدأت بأن وضعت أعصابى فى ثلاجة وانتهت ثوراتى تماما، وعدت رقيقة هادئة كما كنت مع زوجى قبل المأساة، حتى أنه بدأ ينظر إلى باندهاش من تغيرى، ثم بدأت شيئا فشيئا فى التسلل إليه والحديث معه عن أى شىء... لكنى كنت أحرص فى النهاية على أن يصل الحديث إلى مأساة غريمتى.. وشيئا فشيئا بدأت انزلها من مرتبة الآلهة التى وضعها فيها زوجى إلى مرتبة البشر بحسناتهم ونواقصهم، حتى إذا ما وصل زوجى معى إلى هذه المرحلة بدأت فى إقناعه ببطء بأن الإنسان مخير فى تصرفاته، وأن كل ما يفعله إنما يفعله باختياره لكن القدر فى النهاية هو الذى يضع لمساته الأخيرة على لوحة الحياة، فالمسئول عن زواج غريمتى وانتحارها فى النهاية هى نفسها وليس أى أحد غيرها، والمسئول عن زواجه منى هو وليس أحد غيره، وبعد كل مناقشة هادئة من هذا النوع كنت أتركه وانسحب إلى غرفتى وأتركه يفكر بهدوء فى كلماتى، وكنت حريصة على ألاَّ أفرض عليه نفسى فى أى وقت أحس فيه أنه يحتاج إلى أن

يكون وحيدا مع نفسه ومع ذكرياته، والى جانب ذلك كنت أحدثه عن عمله، ولا أكف عن الصخب والمرح معه والخروج بصحبته كلما وجدت لديه استعدادا.

والحمد لله كنت أنجح فى أن أرى الضحكة تنير وجهة الجميل الذى أعشقه بصدق ومع الأيام بدأت نفسى تهدأ.. لكن زوجى لم يعد إلىَّ رغم ذلك حتى أوشكت أن أيأس مرة أخرى، وبدأت قدرتى فى الضغط على أعصابى تتراجع.. وذات يوم طلب منى أن أذهب للبقاء مع والدته طوال النهار لأنها تحتاج إلى رعاية ولأن شقيقته مشغولة بالخارج فذهبت. وفى المساء جاء فاصطحب والدته واصطحبنى معه إلى بيتنا فدخلت الشقة لأجد مفاجأة عمري؛ وجدت كل أصدقائنا وشقيقته فى شقتى.. وأزهارا وشموعا وتورته.. إنه عيد ميلادى يا إلهى... إنه يتذكر عيد ميلادى ويقيم حفلا من أجلى.. وقد أعد الحفل خلال غيابى.. وقفت والدموع فى عينى لا أصدق نفسى أنه يتذكر عيد ميلادى.. إنه يعود إلى بعد كفاح استمر أكثر من عشرة شهور.. لقد أراد الله لى النجاح فى النهاية لأنى أخلصت فى محاولاتى لاسترجاعه.. لقد انتحى بى جانبا وقال إنه يعترف بفضلى وأنه يعرف الآن أن كل ذرة فى قلبه وعقله تحبنى.. لقد بكيت طويلا والأصدقاء من حولنا يصخبون.

لم أسعد فى حياتى مثلما سعدت فى هذه الليلة.. إن للانتصار نشوة عظيمة.. وأن العواطف تستطيع فى النهاية مع شىء من العقل أن تنتصر وما أحلى انتصارى.. لقد كتبت لك لأن من حقك أن تعلم بسعادتى كما علمت من قبل بشقائى.. فهنيئا لى بزوجى بعد الغياب الطويل وهنيئا لك بدعواتى على نصيحتك المخلصة لي!

وهنيئا لزوجك أيضا.. زوجته المحبة المتفانية "المكافحة" بصبر وإخلاص لاستعادته.

لقد كافحت يا سيدتى كفاحا مجيدا للدفاع عن حياتك وعن سعادتك، ومن حقك أن تجنى ثمار العناء والشقاء والعذاب الطويل، وان تسعدى بها ومن واجب زوجك أن يقدر لك هذه التضحية وأن يشكر الله كثيرا أن وهبه هذه الزوجة المتفانية المتمسكة به رغم طول "السفر" بروحه ومشاعره بعيدا عنها، لقد انتصرت الحياة فى قصتك فى النهاية على أشباح الماضى.. ولابد أن تنتصر الحياة لأن الحياة أقوى دائما من الأشباح، ولأن مثل هذه الإرادة الصلبة لابد أن تحقق ما تهدف إليه. إننى أشكرك على حرصك على إبلاغى بسعادتك كما سبق أن أبلغتنى بتعاستك، ولاشك أن رسالتك هذه سوف تسعد من تعاطفوا معك فى البداية، وسوف تقنع أخريات بأن يواصلن الكفاح لاستعادة "المسافرين" بالروح والوجدان بعيدا عنهن... وهذه هى أهمية التجربة الإنسانية التى تطلعنا عليها بعض رسائل البريد..

فرسالتك تثبت لغيرك أن للأمل بقية وأنه لا يأس مع الحياة، وأنه بالصبر والإخلاص قد يعود الغائب ذات يوم إلى عشه، فشكرا لك وتمنياتى لك بعمر طويل من السعادة إن شاء الله.



أنا وزوجتى قد اخترناك حكما بيننا بعد أن استفحل الخلاف بينى وبين زوجتى، وخطرت ببالنا هذه الفكرة التى قد تراها غريبة بعض الشيء، والسبب فى هذا الخاطر الذى طرأ على بالى وبال زوجتى أننا منذ زواجنا الذى مضى عليه الآن عام وبضعة شهور لا يفوتنا متابعة بريدك الأسبوعى.

والقصة أننى تزوجت منذ عام وأكثر قليلاً ولم تكن هناك أى مشاكل بيننا على الإطلاق، ورزقنا الله بطفلة جميلة أضافت إلى حياتنا معنى آخر.. إلخ، وأنا أعمل بالجامعة فى وظيفة محترمة وأعود الى البيت فأجد زوجتى تنتظرنى هى وطفلتى، فلا أطمع فى أكثر من هذه العادة، ثم أرتاح قليلا وبعدها أنصرف إلى عملى الإضافى لتوفير كل احتياجاتنا.. وزوجتى تشجعنى على ذلك ولا تتبرم ولا تشكو وهى سعيدة بكفاحى، وأنا الآخر سعيد بها والمركب تسير حتى طرق بابنا ذات يوم ساعى البريد يحمل لها خطابا من القوى العاملة، وفى الحقيقة أننى كنت قد نسيت أنها قدمت أوراقها للتعيين فى بداية زواجى بها، وقبل أن تكتمل حياتنا بقدوم طفلتنا الوحيدة ولمحت السعادة فى عينيها وهى تتسلم الخطاب وتوقع عليه بلهفة غريبة، مما أوقع الارتباك فى نفسى أكثر فكيف أحرمها

من هذه السعادة الكبيرة التى تتوهج على وجهها وأنا الذى أسعى لتحقيق السعادة لها؟ ووجدتها تزف إلى أننا نستطيع من الآن فصاعدا تحقيق جزء من أحلامنا وإلخ.. لكننى كنت كمن لا يسمع ولا ينطق فأنا رافض لفكرة عملها، ولا يجب أن تتبدل حياتنا بهذا الخطاب القادم من القوى العاملة خصوصا ونحن لا ينقصنا شىء وهى تعترف بهذا، ولم أنم ليلتها وأزعجتنى فكرة عملها والبيت سيحتاج لوجودها وطفلتنا تحتاج إليها أكثر، ثم عندما لم أقو على تحمل فكرة عملها واجهتها بالرفض وهى تشرع فى تجهيز أوراقها للتعيين. وكمن نزل عليها "سهم الله" اندهشت وتعجبت. وضاعت سعادتها من عينيها وظهر اللوم والعتاب فيها ولكننى صممت وصممت هى الأخرى، واتهمتنى بأنى أقف فى طريقها وأن هذا لم يكن رأيى عند زواجنا وهى لم تتعلم وتحمل شهادة جامعية لتقعد فى البيت تنتظرنى بقية حياتها، ولم نتلاق فى مناقشاتنا ولم يستطع أحد أن يقنع الآخر حتى كان اليوم بعد التالى هو يوم الجمعة وهى عادتنا أن نلتف حول قراءة جريدتنا، ولكنها لم تأت بالصحيفة كى تقرأ لى كعادتها فنحن فى شبه بعاد وقمت وجئت بالصحيفة وقرأت وأنا ذهنى شارد وأنا أفكر فيها وفى موقعها وهل أنا على حق أو هى التى على حق؟ واضطربت أفكارى حتى خطرت لى فكرة الكتابة إليك وتحاملت على نفسى وحدثتها فى ذلك وأخذت رأيها فى أن نحتكم إليك، ورحبت زوجتى

بالفكرة وربما لمحت فى عينيها أنها متأكدة أنك كرجل ستوافق ولكنى وافقت أنا أيضا دون اعتبارات أخرى والآن.. لقد ارتضيناك حكما بيننا لكى لا يتعرض بيتنا للانهيار.. بماذا تحكم؟

والتوقيع سامى ونجوى



لقد حملتمانى مالا أطيق لكنى أقبل الأمانة وأرجو ألا يغضب رأيى أحدكما.. إن رأيى هو أنك مادمت قد قبلت من البداية مبدأ العمل لزوجتك فإنْ عليك أن توافق على عملها استجابة لرغبتها.. فالعمل فى الأصل حق لكل إنسان فإن شاءت أن تتنازل عنه المرأة فى بعض الأحيان برغبتها كان لها ذلك. وإن تمسكت به فهو من حقها بلا جدال خاصة إذا اتفق الطرفان على ذلك من البداية.

أما البيت والطفلة الصغيرة فهما مسئوليتها الأولى وعليها وحدها أن تتحمل مسئولية التوفيق بين عملها وبين مسئوليتها الأولى والأساسية، وهى رعايتك ورعاية الطفلة وبيتها فإن نجحت فى ذلك فلا مانع من استمرار التجربة وإنكما تقيمان فى مدينة بالأقاليم بعيدا عن القاهرة وزحامها وعناء مواصلاتها، وأما إذا فشل فى هذه المهمة الصعبة خصوصًا وأن الطفلة مازالت وليدة فعليها أن تكون شجاعة وأن تعترف بفشلها.. وأن ترجع عن الاستمرار فى التجربة.. وما أسهل الاستقالة والرجوع إلى الحق فضيلة فى النهاية.

على أنك لو سألتنى عن رأيى بصفة عامة لقلت لك إن عمل المرأة فى "مخازن" الحكومة والقطاع العام المكدسة بالعاملين والذى لا يحقق ذاتية الإنسان ولا يمارس فيه عملا حقيقيا لا مبرر له سوى الحاجة إلى عائده المادى، فإذا كانت المرأة فى غير حاجة حقيقية إلى هذا العائد.. فإن إدارتها لحياة أسرتها أفضل كثيرا من تكبدها عناء الذهاب والعودة كل يوم إلى مكاتب لن تصنع فيها شيئا سوى احتساء الشاى وتبادل الحكايات.. ولو خيرت لاخترت ألا تعمل المرأة المتزوجة فى سنوات زواجها الأولى حيث الأبناء صغار وفى حاجة إلى رعايتها وإشرافها إلا إذا كان المجتمع فى حاجة حقيقية إلى إسهامها.. وإلا إذا كان تخصصها نادرًا.. ويخسر المجتمع بالفعل إذا افتقدها العمل.

رسالتى إليك هذه ليست قصة سينمائية، لكنها قصة حقيقية أنا بطلها.. وكل كلمة فيها صادقة حتى لو بدت لك غريبة، لذلك أرجوك أن تصدقنى فى كل ما سأرويه لك: وإن كنت لا أعرف لماذا أكتبها إليك فإنى على أى حال شعرت بالارتياح عندما قررت أن اكتب لك. أنا شاب فى الثلاثين من عمرى نشأت فى أسرة ثرية، كان أبى شديد الولع بلعب القمار ومدمنا لشرب الخمر. وكنت أنا الطفل المدلل للأسرة كلها لأنى أصغر إخواتى أو آخر العنقود كما يقولون، وكنت رغم صغر سنى أستطيع أن ألحظ بسهولة حالة أبى حين يعود إلينا فى الفجر مخمورا يتطوح. وكنت أعرف أنه يمضى لياليه حتى الصباح يلعب القمار ويخسر مبالغ كبيرة ثم يندب حظه فى اليوم التالى. وعرفت فى صباى معانى غريبة لكلمات غريبة كان يرددها دائما فهو يتحدث كثيرا عن الحظ.. والنحس والتفاؤل والتشاؤم! ويتفاءل بأشياء ويتشاءم من أشياء. وكان لنا قريب إذا زاره يوما امتنع أبى عن الخروج والذهاب إلى السهرة لأن خروجه فى هذه الللية يعنى أنه سوف يخسر كل ثروته على مائدة القمار.. لأن قريبى، هذا كان يقول أبى "نحس"! وكان أبى إذا غادر البيت وشاهد قطة سوداء فى العمارة أو أمام باب الشقة اكفهر وجهه وأيقن من الخسارة هذه الليلة وغالبا ما كان

أحاول أن أقلد أبى فى حياته.. وفى حديثه عن الحظ والتفاؤل والتشاؤم.. وكان يتجاوب معى ويعطينى نقودا كثيرة.. وشيئا فشيئا وجدت نفسى عن طريق أصدقاء السوء ألعب القمار وأشرب الخمر وأسهر كل ليلة.. فلا يزيد لوم أبى أو أمى لى عن كلمة عتاب بسيطة ـ وكان طبيعيا بعد ذلك أن تتعثر دراستى فرسبت عدة سنوات فى السنة الثالثة بكلية الهندسة وفصلت منها. فحقدت عليها وعلى كل الكليات فى مصر.

ثم مات أبى بعد ذلك بفترة قصيرة فعشنا حياتنا كما كنا ننفق من إيراد أملاكه وما بقى من مدخراته القليلة والغريب أن إخوتى جميعا لم يكملوا دراساتهم.. ولم يعملوا فى أى عمل بالثانوية العامة لأنه لا يليق بمركز الأسرة.. وكان كل منهم يأخذ مصروفه الشهرى من أمنا بعد

وفاة الأب فينفقه فى سهراته، وكنا جميعا نشرب الخمر ونلعب القمار بدرجات متفاوتة. لكن حياتنا شهدت تطورا خطيرا هو وفاة الأم.. وتوزيع ما بقى من الثروة علينا.. فهنا انطلق الجنون داخلنا جميعا وتحولت حياتنا إلى "تفرغ" تام لإنفاق النقود.. بلا تفكير فى المستقبل..

وكلما أعوزتنا النقود بعنا معا بعض ما نملك حتى جاء يوم بعنا فيه الشقة الكبيرة التى نعيش فيها والتى ورثناها وتقاسمنا ثمنها، وانتقلنا للسكن فى شقة أصغر وواصلنا حياتنا نركب السيارات. ونصاحب الفتيات.. ونلهو والغريب أن أحدنا لم يفكر فى أن يستثمر ماله فى مشروع تجارى.. أو فى مشروع مشترك بيننا لنضمن دخلا ثابتا يحفظ لنا حياتنا.. وإنما راح كل منا ينفق من مدخراته كأنها بحر لن ينفد أبدا ليحافظ على مظهره ومظهر الأسرة الثرية!

ورغم أننا كنا نعرف أننا نسير إلى الهاوية.. إلا أننا "فوجئنا" بأننا قد أصبحنا ذات يوم وليس معنا ما يكفى لنفقات حياتنا، فراح كل من إخوتى يبحث عن رزقه بطريقته.. فعمل هذا فى إحدى الشركات براتب صغير.. وعمل ذاك فى محل تجارى لدى بعض المعارف وعمل ذاك مندوبا للتأمين.. وبدأت الحياة تتجهم فى وجوهنا..

أما أنا فقد رفضت الاستسلام لفكرة أن أصبح فقيرا أعيش حياتهم

بعد أن كنت ثريا لذلك لم أعمل! وكان حولى نفس الأصدقاء الذين عرفت على أيديهم طريق الخمر والقمار والفراغ. وكنا أصحاب خبرة بالسيارات لأننا نركبها من صغرنا فقررت أن أسرق السيارات، وسرقنا فى البداية محتويات سيارة وقمنا ببيعها، ووجدت النقود السهلة مرة أخرى فى يدى فحافظت على مظهرى.. أمام الجميع ثم سرقنا سيارة أخرى وثالثة وأصبحت ثريا من جديد، لكن ـ يالسوء الحظ! ـ وقعنا فى أيدى العدالة أو ما يسمونها "بالعدالة" وهى لا تعرف معنى الرحمة ولا طريق الشفقة! فقد قضت على كل منا بالحبس ستة أشهر لكل منا، ودخلت السجن وخرجت منه ولا أريد أن أقص عليك ما رأيناه فى السجن من أهوال وعذاب وضرب وسباب وغيره، فجعلنى السجن أكره بلدى وأحقد عليها، وحاولت بعد ذلك أن أجد عملا فلم أستطع لأن أحدًا لا يريد "لمشبوه" أن يعمل عنده، فقررت السرقة لكى أعيش، وسرقت سرقة تافهة لأغطى مصاريفى النثرية إلى أن أدبر سرقة كبيرة تلبى لى مطالبى.. فكان يوما مشئوماً فقد وقعت فى أيدى رجال الأمن فضربونى ضربا مبرحا بكل قوتهم ثم تركونى، فعدت للسرقة من جديد وسرقت أشياء ثمينة وجدت بعد ذلك أننى حاولت أن أسرق رجلا بالإكراه لكن لسوء حظى مرة أخرى وقعت من جديد فى أيدى رجال الأمن، وفى هذه المرة لم يكتفوا بضربى "بكل قوتهم" فقط.. وإنما قدمونى للمحكمة أيضا فحكمت على بالسجن

لمدة ٥ سنوات، فهربت وسرقت مرة أخرى وبالإكراه ولسوء حظى أيضا وقعت فى يد رجال الأمن فضربونى بكل قوتهم وقدمونى للمحكمة فحكمت على بتضعيف المدة أى بخمس عشرة سنة، لكنى تمكنت من الهرب مرة أخرى، وفى هذه المرة قررت ألاَّ أعود للسرقة لكى لا أقع فى أيدى من لا يرحمون، وحاولت أن أحافظ على مركز الأسرة أمام الأقارب والمعارف بعد الإفلاس فلم أجد طريقا مفتوحا أمامى غير السرقة لكنى لا أريده لأنى لا أريد دخول السجن، واهتديت أخيرا إلى الطريق الذى يريحنى من الذل والهوان الذى ألقاه كل يوم فى حياتى ومن الخوف من الرجوع للسجن.. وهذا الحل هو الانتحار لأن الحياة أصبحت شرا يجب التخلص منه، فقل لى بربك هل هناك طريق آخر لمن فى مثل ظروفى غير الانتحار.. اننى أريد أن أسمع رأيك وأنا فى مفترق الطريق.. وصدقنى أن كل ما قلته لك صحيح وليس فيلما من الأفلام فماذا تقول لي؟

إنك لست فى حاجة للانتحار.. لأنك انتحرت بالفعل منذ زمن طويل حين سرت فى طريق الخطيئة والجريمة والضلال! والحق أننى كدت لا أصدق رسالتك هذه لولا أن بها نغمة عجيبة لا تصدر إلا عن شخص منحرف بالفعل، هى أنك لا تعانى من أى شعور بالذنب تجاه كل ما صنعت!! فالمسألة كلها من وجهة نظرك ليست سوى مسألة سوء حظ لا أكثر ولا أقل!!

فسوء الحظ هذا هو الذى أوقعك فى أيدى "ما يسمونها بالعدالة" فحكمت عليك وعلى رفاقك المنحرفين بالحبس ستة أشهر.. وسوء الحظ هو الذى أوقعك فى أيدى رجال الأمن التى لا ترحم فضربوك "بكل قوتهم"! وتركوك مرة، ثم وقعت فى أيديهم مرة ثانية فلم يتركوك لسبب "بسيط جدا" هو أنك كنت تسرق رجلا بالإكراه!

لقد اعتدت أن أخاطب أصحاب الرسائل بعبارة يا صديقى.. لكنى عاجز عن استخدامها معك.. لا لأنك سارق أو منحرف وإنما لأنك لا تحس بأى "خطأ" فى ذلك، كما لو كان أمراً طبيعيا.. وهذا

يؤكد لى أنك ابن طبيعى لبيئتك وظروفك وهى بيئة انهار فيها المثل الأعلى منذ زمن طويل، حين كان يعود للبيت مترنحا من شدة السكر وحين كان يبدد ثروته وعمره فى القمار بلا إحساس بالمسئولية، وحين كان يربط ربطا خاطئا بين أسباب ونتائج لا علاقة بينها.. كالربط بين قطة سوداء وبين الخسارة فى اللعب. لقد أورثك أبوك "قيمه" العظيمة هذه وأخطرها هذا القلب الصخرى للمقامر الذى لا يهتز وهو يعبث بالألوف التى قد تذهب للعدم وقد تجىء.. وما أظن أن مثل هذه البيئة كان يتردد فيها ولو من باب المصادفة شىء عن القيم الدينية والروحية، واحترام حقوق الآخرين أو عن مسئولية الإنسان عن تصرفه وعمله أو عن الثواب والعقاب، فاختلت القيم لديك اختلالا شديدا.. حتى أنك لترى أن من حقك أن تسرق رجلا بالإكراه لأنك تريد بعض الكماليات لتحافظ على "مركز" الأسرة أمام المعارفّ فأى "مركز" هذا.. وأية أسرة هذه.. وأى معارف هؤلاء عليك وعليهم اللعنة أجمعين! ثم أى إخوة هؤلاء الذى يسيرون فى الحياة كأنهم مسوقون إلى مصير لا فرار منه.. بلا أدنى إحساس بالمستقبل.. وبالمسئولية حتى أنهم "يفاجأون" بنفاد الثروة.. وهم يبددونها تبديدا كل يوم.. بلا أى محاولة للعمل والكفاح لكسب القوت.

والعجيب أنك "غاضب" من العدالة لأنها سجنتك.. وتربط نفس هذا الربط العجيب بين الأسباب والنتائج.. فأنت تفشل فى دراستك

وكانت لديك كل أسباب النجاح.. فلا تكون النتيجة هى أن تغضب من نفسك أو تحملها مسئولية الفشل! إنها تكون النتيجة "المنطقية" بالنسبة لك هى أن تحقد على الكلية وعلى الكليات فى مصر!!

وأنت تدخل السجن لتصرفك وانحرافك.. فلا تغضب من نفسك التى عرضتك، لهذا الهوان، وإنما تكون النتيجة "المنطقية" بالنسبة لك هى أن تكره بلدك وتكره الآخرين.. لأنك "يا حرام" قد سجنت من أجل بعض المسروقات!

أنت إنسان عجيب حقا ويحيرنى فى أمرك أننى لا أعرف سببًا لهذا "الاعتزاز" الغريب بنفسك التى ينبغى أن تتوافر لها كل الكماليات بلا عرق لأنك لا يصح أن تحيا كالفقراء التعساء الذين لا يعرفون مصدرا للقوت الشحيح سوى عمل أيديهم!

ترى ماذا جرى للقيم.. أما زالت القيم قيما والفضائل فضائل.. أم جرى عليها ما جرى على معظم أوجه الحياة؟!

إنك لست أنانيا فقط ـ نتيجة للتربية الخاطئة والتدليل المعيب والقدوة السيئة ـ بل أنت نرجسى شديد النرجسية.. تعبد ذاتك وترى أن الكون لابد أن يسخر لخدمتها وراحتها ورفاهيتها!! وأمثالك كثيرون بكل أسف فى الحياة.. وفى هذا الزمن الردئ ومن العجيب حقا أن معظم المصابين بهذا الداء اللعين ـ النرجسية وحب الذات ـ

هم ممن يعجز العقل أن يجد سببا واحدا مقنعا لإعجابهم بأنفسهم "وتقديسهم" لذواتهم.. وهى غالبا "ذوات" مثيرة للاشمئزاز والقرف! أو ذوات جوفاء لو دققت فوقها لسمعت رنين الخواء النفسى والقيمى عاليا منها!

إنك تقولى لى.. إنك لا تجد أمامك سوى الانتحار وتطلب نصيحتى.. وأنا أقول إن مثلك لا يقدم أبدا على إيذاء ذاته "المقدسة" التى يؤمن فى أعماقه أنها أفضل من ذوات الآخرين، ولا بأس من توفير كل أسباب الرفاهية لها على حساب الآخرين، فمن هذه الناحية أبشر بطول سلامة ـ وبطول الهرب من مواجهة الواقع وتحمل نتائجه كما يفعل الرجال.. أما إذا أصررت على طلب رأيى فسأقول لك ما أعرف مقدما أنه لن يعجبك، ولن تعمل به وهو كن رجلا مرة واحدة فى حياتك وادفع ضريبتك العادلة للحياة وللمجتمع قصاصا لما ارتكبت وتحمل عواقب عملك.. جرائمك.. واخرج للحياة بعد عدة سنوات وقد تعلمت مهنة شريفة تكسب بها قوتك كما يفعل الرجال، وكما يفعل الشرفاء، ثم عش حياتك بعد ذلك بضمير مستريح آمنا ـ بدلا من أن تعيش حياة الهارب إلى أن تقع ـ لسوء الحظ!! فى أيدى ما يسمونها العدالة ذات يوم فتدخل السجن وأنت مازلت غير مقتنع "بضرورة" ذلك ولا بأهميته!

يسألنى بعض القراء إلا يصلك من الرسائل إلا هذه الرسائل الحزينة المأساوية غالبا؟ فأتفكر فى السؤال ثم أجيب من يكتب إلى يكون عادة مهموما بمشكلة فكيف تكون رسالته إلا حزينة غالبا! ورغم اقتناعى بها قلب إلا أنى حاولت أن أبحث وسط أكوام الرسائل عن رسالة تناقش مشكلة جادة بغير أن تكون مغرقة فى المأساوية.. فلم أجد إلا رسالة من فتاة جامعية ـ شدتنى بصدق كلماتها المباشرة بالرغم من أنها تثير ببساطة مذهلة مشكلة من أعقد مشاكل مجتمعنا الآن، تقول الرسالة:

"أنا فتاة فى العشرين خمرية اللون. متوسطة الجمال.. طالبة فى السنة الأولى بإحدى الكليات النظرية، وأنا فى الواقع لا أهوى هذه الكلية ولا موادها.. ولا أهوى أيضا أية كلية أخرى ولا موادها! فقد أدخلونى التعليم العالى رُغْمًا عنِّى، وكنت أتمنى أن أحصل على دبلوم متوسط وأستريح من عناء المذاكرة ومسك الكتب التى لا أفقه فيها شيئا! فأنا يا سيدى أمسك الصفحة بالساعة لكى أعرف ماذا تقول، وإذا حفظت الدرس وتركته وأمسكت بمادة أخرى أنسى كل ما حفظته فى المادة الأولى! كأننى لم أقرأ فيها شيئا وهكذا، وقد رسبت فى السنة

الأولى لى فى الكلية وهى السنة الماضية وكنت لا أريد أن أعيد السنة وقلت "لهم " إنى أريد أن أدخل معهدا لمدة سنتين وأخلص! وبكيت أمامهم لأنى لا أحب المذاكرة ولا سيرتها، لكن أبى وأمى صمما على أن أتعلم فى الكلية مرة ثانية حتى أحصل على الليسانس، وكان أبى قد بدأ يميل للموافقة لكن أمى صممت وفرضت رأيها وصرخت فى.. إن أحدًا "لم" يتزوجك إلا إذا أخذت الشهادة علشان "تشتغلى وتساعديه على أمور الحياة"، وتعجبت وهل شهادة الثانوية العامة لا تكفي؟ ولماذا لا يكون لها وظيفة كويسة مثل الدبلوم؟. بس شاطرين يقولوا عليها عنق الزجاجة؟ وبعد كده يتركوا الطلبة "لايصين" فى الكليات لماذا لا "يعملون" لها وظيفة يعمل بها حامل الثانوية العامة الذى لا يريد أن يكمل تعليمه؟ والذى يريد أن يتعلم "هوه" حر!.. وما ذنبى أنا وأنا لا أريد أن أذاكر ولا أن أتعلم؟ يا سيدى إننى أريد أن "أجلس" وأستريح دون أن أذاكر ولا أريد أن يكون لى امتحان ينتظرنى فى نهاية العام.. لأننى أكره المذاكرة "كره العمى" وكأنها "عدوة" لى فأتركها مسرعة إلى التلفزيون أتفرج شوية، فتصرخ فى وجهى ماما بأعلى صوت: ما بتذاكريش ليه.. روحى ذاكرى، فأعود إلى المكان الذى كنت فيه أتكلم مع إخوتى وأضيع الوقت وهى فاهمة أننى باذاكر مادمت بعيدة عنها وعن التلفزيون! آه يانى أعمل إيه بس

يا رب؟.. إن "أحدا" لم يفهمنى فى الدنيا.. ويجيئ وقت "ادعى" فيه على اللى حرر المرأة "وسابها لهذا العذاب" وأظل أندب حظى لماذا لم أدخل ثانوى تجارى أو ثانوى زراعى كان زمانى خلصت "وبقى" معى شهادة، لكن أمى صممت على أن أدخل ثانوى ـ لكى أدخل التعليم العالى مثل إخوتى، ومن سوء حظى أن المواد الجديدة فى الكلية أصعب من مواد السنة الماضية وأكثر منها.. يعنى هوه أنا ناقصة! وعند ذهابى للكلية أحس كأنى داخلة إلى جهنم وأقول فى نفسى يا عالم يا ناس أنا لا أرغب فى التعليم.. أنا عاوزه "اتجوز".. و"أجلس" فى البيت وأرعى أطفالى وزوجى وأعطيهم كل عمرى وحبى.. ولكن لا أحد يسمع ولا أحد يدرى بى إلا الله سبحانه وتعالى!..

ثم أنا عايزة أفهم.. هل شهادة الثانوية العامة لا تكفى لأن أتزوج! وهل لا أحد "يوجد" صحيح يرضى بأن يتزوج واحدة معها ثانوية عامة وتريد أن تقعد فى البيت؟

هذه هى مشكلتى وأرجو منك الحل والنصيحة..

بس أرجوك "لا تقل" لى ذاكري! لأن الكلمة دى زهقت منها خالص.. وأنا استريح لرأيك خالص وأريد أن اهتدى بحلك لهذه المشكلة وشكراً.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

هذه هى الرسالة فماذا أستطيع أن أقول لكاتبتها؟ إن رسالتها تثير قضية كبيرة هى قضية جيل بأكمله سيطرت عليه مفاهيم خاطئة يتحمل جيل الآباء مسئوليتها فى الغالب، هى أن التعليم الجامعى وحده هو الطريق إلى الحياة! مع أن مسالك الحياة عددية والطرق إليها عديدة وليس التعليم الجامعى سوى أحد هذه الطرق، وقد لا يكون أفضلها! لقد رفعنا جميعا ذات يوم شعار "هيا نتعلم فى الجامعة" فاندفعت الجموع وراءه تنحشر لمدة ٤ أو ٥ سنوات فى قاعات مزدحمة بالبشر، ثم تخرج منها وفى رؤوسها علم قليل وفى أيديها "كوبون أبيض" يعطى حامله الحق فى الحصول على راتب أول الشهر إذا وجد الوظيفة!

أما الميول والاستعدادت فأشياء لا تهم أحدًا إلا القليلين! والنتيجة معروفة.. ومظاهرها معروفة.. ولا داعى للإطالة فى الحديث عن المشكلة العامة التى يعرف الجميع باقى تفاصيلها.. أما عن المشكلة الخاصة بكاتبة الرسالة فإنى أقول لها: يا آنستى لقد أخطأ أبوك وأمك فى حقك حين أرغموك على التعليم الثانوى ثم التعليم العالى لكى

تكونى مثل إخوتك! فالاستعداد العلمى يختلف من إنسان إلى آخر ومن أخ إلى أخيه.. والتعليم الفنى ليس "عارًا" تنفر من الأسرة.. أو تأباه لبعض أبنائها فطالب تعليم متوسط ناجح خير ألف مرّة من طالب جامعى فاشل، وخريج تعليم متوسط يجب عمله ويخلص له أفضل ألف مرة من جامعى لا يجيد عمله ولا يحبه ولا يتوافق مع ميوله واستعداده، ونحن نجرم فى حق أبنائنا حين نصر على أن نصبهم فى قوالب من صنع رغباتنا وآمالنا نحن، مهما اختلفت مع تصوراتهم لمستقبلهم ورغباتهم وميولهم.. فواجبنا فقط هو أن نخلص لهم النصح وأن نضع أمامهم حقائق الحياة، وأن نعينهم بخبرتنا وآرائنا فى الحياة، لكنه ليس حقنا بالتأكيد أن نفرض عليهم طريقهم فى الحياة ما فى ذلك من تنافر واضح بين قدراتهم وبينه، أما حكاية أن أحدًا لا يتزوج فتاة إلا إذا كانت جامعية فقضية تؤمن بها كثير من الأمهات، لكنها دائمًا ليست صائبة والأمهات معذورات إلى حد كبير، بسبب انعدام فرص العمل أمام خريجى الثانوية العامة، ولو أنصفنا لجعلنا من المدرسة الثانوية هى ختام التعليم الطبيعى أمام الشباب وبداية طريقهم إلى الحياة العملية كما هى الحال فى أوروبا وأمريكا وهم فى بلادهم يسمون المدرسة الثانوية الـ"المدرسة العالية" لأنها آخر مراحل التعليم الأساسى.. أما الجامعة فللمتفوقين والقادرين علميًا.

وبعد المدرسة العالية وهى شهادة مهمة جدا فى مجتمعاتهم يخير

تتوقعين بالطبع منى حلا.. لا يتضمن نصيحتك بالاستذكار واستكمال دراستك مادمت قد بدأتها فمن أين أجده يا صديقتي؟ لا مفر أمامك من استكمال الطريق مادمت قد بدأته لكى لا تهدرى ما ضاع من عمرك وأنصحك بأن تبذلى جهدك لاجتياز امتحان هذا العام فإذا نجحت فيه كان من الممكن عليك أن "تتجرعي" باقى السنوات وتفوزى بالشهادة وعلى المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح.. وقديمًا قالوا "إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون" وأمرك إلى الله أما إذا فشلت هذا العام أيضا فاعتقد أن طريقتك سوف يصبح مسدودا، وفى هذه الحالة أنصحك بالبحث عن معهد متوسط يؤهلك لأى عمل ملائم.. والعبرة بالنتيجة العملية فى الحياة لا بالألقاب والشهادات.. وعلى والديك الاقتناع أيضا حرصا على مستقبلك الذى لاشك يهمهما أكثر مما تتخيلين مع تمنياتى لك بالتوفيق.

أنا يا سيدى طبيب أعالج الناس.. لكنى لا أستطيع علاج نفسى.. وآمل أن أجد لديك أملا فى الشفاء. فأنا شاب عمرى ٢٩ سنة أمتلك عيادة خاصة بالقاهرة تدر على دخلا كبيرا وأمتلك سيارة.. وفى طريقى إلى الحصول على شقة لائقة، وقد حققت كل ذلك عقب تخرجى فى كلية الطب وخلال ٣ سنوات وقد تتعجب كيف حققته خلال هذه الفترة لكنى أقسم لك بالله أنه لم يدخل جيبى قرش واحد إلا من حلال لكنه توفيق ربى ورضا منه وتمسكى بتعاليم دينى.. قد فتح لى أبوابا من الرزق لا يعلمها إلا الله.. وقد محا ذلك بعض الشيء ما أنطوى أنا عليه من ذكريات أليمة.. وخفف قليلا من طابع حياتى الحزين منذ طفولتى..

فلقد نشأت وحيدا يتيما.. لم أر أبى لكنى سمعت عنه من أمى، وفتحت عينى للحياة فوجدت نفسى وحيد أمى.. تحنو على وتكافح لتعليمى من قطعة أرض صغيرة ورثتها عن أبويها.. فعشت طفولة بائسة نقتات بالفتات.. وبأقل شيء يحفظ على الإنسان حياته.. لا أعرف الطعام الساخن إلا فى الأعياد، وأخلع جلبابى الوحيد لأتدثر به بدلا من الغطاء فى ليالى الشتاء.. نحيا فى غرفة ضيقة فى بيت بإحدى قرى الريف.. يعلم الله كم عانينا فيها من البؤس والحاجة والشدة.

وقد كان كل ذلك وأمى معى ترعانى وتحنو علىَّ وتشد من أزرى، فما بالك وقد رحلت عنى فجأة وأنا فى سن الخامسة عشرة! إننى لا أريد أن استطرد فى الذكريات الأليمة لكنى مضطر لأن أروى لك بعض لمحات من حياتى تمهد لك معرفة مشكلتى، وهكذا وجدت نفسى وحيدا ولا مفر من مواصلة الحياة فواصلت الكفاح وحدى.. لا سلاح معى سوى دعاء أمى ورضا من الله عز وجل، ثم روح عالية وهبنى الله إياها ونفس عفيفة ثم ذكاء من فضل الله هيأنى لأن أتفوق فى دراستى فكنت الأول دائما فى كل مراحل الدراسة من الابتدائية حتى الجامعة. ولا تتصور عمق حزنى حين استدعيت ذات يوم لأقابل محافظ الإقليم مع أوائل المحافظة ليصافحنى ويقدم لى شهادة التفوق، فقد جاء الأوائل فى أبهى زينتهم ومعهم الآباء والأمهات والأشقاء والشقيقات والأعمام والأخوال.. وكل فتى منهم يتوسط دائرة من الأهل والأحباب السعداء به.. أما أنا فقد كنت أجلس وحدى فى انتظار سماع اسمى ارتدى بدلة أقرضها لى أحد أبناء قريتى من المتيسرين، أرقب سعادة الآخرين وأذوب خجلا.. فلا أخ ولا أخت.. ولا أب ولا أم. ولا عم ولا خال.. بل أنا وحدى تماما كشجرة نبتت خطأ فى صحراء قاحلة لا شىء حولها سوى الرمال، وجاءت اللحظة المنتظرة.. وتقدمت لمصافحة المحافظ وتسلم شهادتى.. وعدت متعثرا فى خجلى.. ولم يخفف من أساى أنى كنت

الأول على كل هؤلاء الذين اصطحبوا "قبائلهم" معهم، وواصلت الحياة وأنهيت دراستى الثانوية، ودخلت كلية الطب، وفكرت فى أمرى فوجدت أن الحل الوحيد لمواجهة أعباء التعليم والإقامة فى القاهرة هو أن أبيع قطعة الأرض الصغيرة التى ورثتها عن أمى، وأن أضع ثمنها فى صندوق البريد وأن أسحب منه كل شهر أقل مبلغ ممكن يكفى المدينة الجامعية لأنه لا طاقة لى بنفقات الحياة خارجها.. والثانى هو ألا أتعثر فى دراستى وأن أحصل على البكالوريوس بعد ٦ سنوات بالضبط هى مرحلة الدراسة، وساعدنى أهل القرية الطيبون فى بيع قطعة الأرض بأعلى سعر ممكن وقتها.. بل بما يزيد على قيمة الأرض نفسها من باب المساعدة والرحمة فى الواقع، ورحلت إلى القاهرة مزودا بنصائح بلدياتى ودعواتهم لى بالتوفيق، لكنى للأسف لم أقبل فى المدينة الجامعية لمدة عامين فى البداية.. ولو علموا بحقيقة حالى لأعطونى كل المدن الجامعية فى مصر لأسكن فيها.. فواجهت مصيرى وأقمت لدى أحد بلدياتى الذى قبل ذلك رأفة بى، لكن تكاليف الحياة خارج المدينة لم تكن فى حسابى، فنزلت للعمل إلى جانب الدراسة.. وعملت فى كل عمل يمكن أن تتخيله بشرط أن يكون شريفا لأكسب قوتى.. وأوفر لنفسى تكاليف الدراسة فى كلية الطب، وأنت تعرف كم تتكلف.. لم اترك عملا لم أضع يدى فيه.. ولم أضيع لحظة واحدة فى حياتى ليست للعمل أو الدراسة والمذاكرة.. وفقنى

الله سبحانه فى دراستى. وكان التفوق فى دراسة الطب حليفى.. فواصلت الدراسة حتى تخرجت.. وعملت وحققت نجاحا يعتبره البعض من زملائى معجزة.. فافتتحت عيادة واشتريت سيارة، ودفعت ثمن شقة وعملت فى عدة مستشفيات وراجت عيادتى حتى أصبح مرضاى بالعشرات كل يوم، وأخلصت لمهنتى فأعطتنى بسخاء، ووجدت نفسى قد حققت آمالى وآن الأوان لكى التقط أنفاسى من الكفاح المر الذى واصلته لمدة عشرين سنة، فقررت أن أتزوج. وهنا ظهرت مشكلة حياتي! فلقد أعجبت بفتاة هدانى الله إليها فى البداية ثم بعد أن دخلنا فى التفاصيل وجدت نفسى أواجه موقفا مؤلما لا حيلة لى فيه، فبعد المقدمات الأولى قيل لى.. تعال ومعك أهلك لنتعرف عليهم.. فقلت ببساطة: لا أهل لي!

فلم يفهموا فى البداية، فقلت مرة أخرى ببساطة: إننى ابن وحيد لأبوين وحيدين، فليس لى إخوة ولا خالات ولا أخوال ولا أعمام ولا عمات. وشرحت لهم ظروفى، فلم يصدقنى الكل وأجمعوا على أننى أتلاعب ولست صريحاً رغم أننى أقسمت لهم على صدق ما أقول، بلا فائدة.

وسألت نفسى.. ما ذنبى يا رب فى أنى ابن وحيد لأبوين وحيدين شاء حظهما العاثر أن ينجبانى وحدى لليتم والوحدة و"المعرة" بين

الناس بانعدام الأهل، ومن أين آتى بإخوة أو أعمام أو أخوال أو أبناء خالات وأخوال وأعمام وعمات لأقدمهم لأسرة خطيبتى؟ وكيف أجيب عن تساؤلات أهل الفتاة المستنكرة. أليس لك حتى زوجة خال تأتى معك عند الخطوبة؟ وكيف تكون لى زوجة خال أو زوجة عم ولم يكن لى عم ولا خال.

باختصار.. ووجهت بالرفض.. ونزفت من مشاعرى وكرامتى دما وانصرفت عن فكرة الزواج لفترة إلى أن تهدأ نفسى، ومرت فترة طويلة نسيت خلالها بعض الآلام، ثم تكررت المحنة بكل أسف مع شقيقة صديق لى رحب أهله بى فى البداية وعند التفاصيل رفضونى لنفس السبب، وكان صديقى نفسه هو أول الرافضين، وحجتهم الوحيدة هي: ماذا نقول للناس؟ ولم يصدقوا هم أيضا قصتى التى لا يصدقها ولا يعرفها سوى أهل بلدى وبعض المقربين منى.

وانهزمت نهائيا بعد ذلك.. ومرضت نفسيا.. وكرهت الحياة وبالرغم من أننى قد تغلبت على صعاب كثيرة فى حياتى.. فلقد انهزمت أمام هذه المشكلة وتأذيت نفسيا كثيرا.. ومللت كل شىء.. حتى بدأت أنصرف عن عيادتى فآتيها يوما وأغيب عنها يوما، وأقضى أوقاتا، طويلة أقود فيها سيارتى وسط الزحام شاردا ساهما لا أعى مما حولى شيئا.. لقد تعمدت ألا أكتب لك اسمى وعنوانى لأنى لست

باحثا عن فتاة تقبلني بوضعي الذى أنا عليه، لأنى تعقدت جدا من هذا الموضوع، لكن أكتب إليك لأجد لديك بعض الراحة ولأسألك: أليست هذه هى إرادة الله التى شاءت لى أن أكون هكذا بلا أهل؟ وهل أنا مسئول عن أن أبى وأمى وحيدان وأنى وحيد أبوى.. ولماذا لا يقدر الناس ظروف الآخرين ويتجنبون إيذائهم فيما لا ذنب لهم فيه ولا إرادة؟ إننى لا أريد منك حلا للمشكلة لأننى لم أعد راغبا فى حلها لكننى أريد منك كلمة رثاء لى قد تخفف بعض آلامى.. ولى الله وحده فى كل ما لقيته وما ألاقيه فى حياتى من عناء..

لا يا صديقى لن تجد لدى "كلمة الرثاء" التى تنتظرها.. وإنما ستجد لدى كلمة بل كلمات إعجاب وانبهار بك وحب لك فأنت تستحق الإعجاب لا الرثاء لصلابتك وكفاحك الأسطورى لكى تبنى حياتك وحيدا تماما من الأهل والأقارب، ومجردا من كل سلاح سوى إرادتك الحديدية، منذ كنت فتى فى سن الخامسة عشرة. إن مثلك يفخر به العقلاء ولا يرثون لهم. لكن إعجابى بك يخالطه لوم لك وعتاب عليك.. إذا كيف ينهزم شاب ممتاز بكل معنى الكلمة له مثل إرادتك وصلابتك وتفوقك وذكائك، أمام موقف سخيف من أمثال هذه السخافات التى تزخر الحياة بها؟ وكيف تضيع منك نفسك.. وأنت الفتى الذى واجه الحياة بكل مراراتها وصعوباتها وحيدا وهو ابن الخامسة عشرة؟ لقد واجهت من شدائد الحياة ما يبدو إلى جواره هذا الموقف السخيف لهوا وعبثا، فلم لم تنظر إليه من عل.. وتتفهم حجمه، وتواصل حياتك إلى أن تجد من تستحقك ومن تفخر بك ويفخر بك أهلها كشاب مستقيم ناجح ومتفوق.. أبواب الحياة مفتوحة أمامه على مصراعيها.. فأنت رغم هذا النجاح مازلت فى

البداية.. ومثل هذه الإرادة الصلبة لن تتوقف إنجازاتها عند حد افتتاح عيادة وامتلاك سيارة.. فأنت سوف تحقق الكثير يا صديقى والكثير، فكيف تنهار أمام هذه العقبة المؤلمة؟ إننى أعرف تماما أنه لا جريرة لك فيما حدث..

ومن المؤلم فعلا أن يحاسب الإنسان عما لا حيلة له فيها ولا إرادة ونحن لا نختار لأنفسنا ابوينا وأشقاءنا وأهلنا.. لكننا قد نختار لأبنائنا أمهاتهم وأخوالهم.. وهذه فقط هى مسئوليتنا تجاههم، أما ما غير ذلك فهو على حد تعبير أبى العلاء المعرى "هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد!" وأنت لم تجن على أحد يا صديقى.. ولم تحقق إلا كل خير وكل نجاح، فلا تحمل نفسك ما لا طاقة لها به.. والوحدة الحقيقية هى وحدة النفس الداخلية لا انعدام الأهل والأقارب، فما أكثر ما نشعر أحيانا بالوحدة ونحن وسط زحام الآخرين وصخبهم وضجيجهم، والوحدة الحقيقية هى أن تكون عاجزا عن حب الآخرين ـ وألا تكون قادرا على اجتذاب حبهم لك، وأنا شخصيا كثيرا ما تصلنى رسائل من فتيات وشباب يشكون إلى من إحساسهم بالوحدة فى بيوت مزدحمة بالآباء والأمهات والشقيقات والأشقاء، حيث ينطوى كل إنسان على نفسه وآماله وآلامه بلا مشاركة حقيقية من الآخرين ولا مشاركة منه لهم، فالناس يا صديقى قد يتجاورون لكنهم أيضا قد لا يتشاركون.. وقد لا يخفف عنهم جوارهم شعورهم

بالوحدة وفقدان الرفيق وانعدام الأهل بمعنى الكلمة الحقيقي! فلست وحدك فى همومك.. لكنك قد تتميز عن كثيرين بما حبتك به العناية الإلهية من مزايا وإمكانيات أهمها الذكاء والتفوق والإرادة فافتح قلبك للآخرين يا صديقى وتمسك بروابطك بأهل قريتك ولا تنفصل عنهم فهم أهلك الحقيقيون وعد إلى مرضاك والعطاء لمن حولك ومن تتعامل معهم ومن يستنجدون بك. تجد لك فى كل بيت شقيقا.. وفى كل مجتمع أسرة وفى كل مكان أبا وأما وأهلا طيبين.. مع تمنياتى لك بالسعادة والتوفيق.

أكتب إليك هذه الرسالة.. فى لحظة مراجعة للنفس.. كنت أتأمل فيها حياتى فوجدت نفسى أمسك بالقلم لأكتب لك تجربتى لعلها تفيد الآخرين.. كما أقرأ أنا تجاربهم فى بابك وأستفيد بها.

أنا يا سيدى شاب فى الخامسة والثلاثين حصلت منذ عشر سنوات على دبلوم متوسط، والتحقت بالعمل فى إحدى الهيئات، وكنت حتى هذه اللحظة أحيا حياة متوسطة عادية فى كنف عم لى مهندس فاضل متفوق فى عمله الحكومى، يعيش هو الآخر حياة مستورة هادئة بلا أحداث درامية ثم شهدت حياته وحياتى معه تطورات خطيرة بدأت فى عام ١٩٧٤، فقد تسلم عمى ميراثا ضخما عبارة عن أرض كان حولها نزاع قديم انتهى فى هذا العام لصالحه وتسلمه خالصا فباع الأراضى والمبانى ووضع حصيلتها فى البنك، وكانت مبلغا تشيب له الرؤوس وصدقنى أن كل ما أرويه لك حقيقى لسبب بسيط هو أننى لا أبغى من ورائه أى غرض سوى العبرة والاعتبار لأنى فى حالة تأمل ومراجعة للنفس .تسلم عمى ميراثه، وكان مليونا كاملا من الجنيهات وبأسعار عام ١٩٧٤! وواكب ذلك بداية عصر الانفتاح فى مصر واشتغال كل من هب ودب

بالتجارة.. فقرر عمى أن يستقيل من عمله الحكومى وأن يمارس التجارة فافتتح مكتبا للاستيراد والتصدير.. وأقنعنى بالاستقالة من عملى الحكومى لأعمل معه مديرا لأعماله، وكان من الجنون أن أتمسك بعملى الصغير وراتبى المحدود فى مواجهة هذا العرض المغرى أن أكون "مديرا" لمليون جنيه! فسارعت بالاستقالة واتخذنى عمى صديقا وصفيا وكاتما لأسراره.. وقال لي: سنبدأ الآن الحياة الحقيقية، سنعيش حياة الأثرياء وسنحيا كما لم نحى من قبل.

وتصورت أن الرجل يبالغ فى تصويره للحياة مع مليون جنيه، لكنه وياللعجب كان "متواضعا" فى أحلامه حينذاك فلقد انقلبت حياتنا انقلابا عجيبا خلال فترة قصيرة كما يحدث فى الأفلام الرديئة! كنا نعيش فى بيت من دورين يعيش هو فى الدور الأعلى منه وأعيش أنا فى الدور الأرضى، فأصبحت ذات يوم فإذا بالمهندسين والعمال يحيطون بالبيت كأنهم فى معركة حربية لتجديده وطلائه وزرع حديقته وإعادة تأثيثه.. وفى ظرف شهور كان البيت قد تحول إلى فيلا فاخرة تليق بأصحاب المليون جنيه، وحين ناقشته فى التكاليف قال لى إن ذلك ضرورى للمحافظة على المظهر، وأنه لا داعى للقلق لأن المشكلة دائما هى فى المليون الأول ونحن قد وجدناه فلا مشكلة إذن ولأن المليون سريع التوالد وسيلد فى سرعة خرافية ملايين عديدة ثم أصبحت ذات يوم وإذا أمام الفيللا سيارات بسائقيها اشتراها عمى لزوم الشغل

والمظهر الاجتماعى، وبدأ عمله فى التجارة فعين لنفسه هيئة موظفين لمكتبه وسكرتيرة خاصة واشترى عدة محلات تجارية، وكنت خلال كل ذلك مشرفا على كل هؤلاء، وقال لى مرة: هيا لنكسب.. فمن لا يكسب هذه الأيام لن يكسب فى حياته أبدا، وبدأ نشاطه التجارى بأسلوب عجيب فهو يشترى اليوم عدة أطنان من حديد التسليح ثم يبادلها غدا بعدة أطنان من الدواجن المجمدة. ويشترى فى اليوم التالى آلاف العلب من السمن المستورد، ثم يبادلها بعد ساعات بعدة أطنان من الأسمنت، ووجدتنا نتاجر فى أشياء غريبة فنحن نتاجر أسبوعا فى الفراخ وأسبوعا فى الأسمنت.. وأسبوعا فى المكرونة وأسبوعا فى أدوات التجميل.. وأسبوعا فى السجاد المستورد وأسبوعا فى السيارات، وكنت أرقب السعادة الطاغية على وجهه وهو يقف بين التجار الصغار يأمر وينهى ويشخط ثم يقول الكلمة الأخيرة فى الموضوع فتكون الكلمة الفاصلة فيه ولا راد لكلمته، واستولى عليه هوس الشراء بطريقة جنونية.. فكان إذا دخل محلا لشراء جهاز تليفزيون ملون أقنعة البائع بسهولة بشراء خمسة أجهزة لكى يوزعها على "أركان" الصالون والصالة والانترية كأننا فى استديو للإخراج التلفزيونى! وإذا ذهب لشراء بوتاجاز مستورد فاخر أقنعة البائع بشراء آخر من باب الاحتياط لأن هذا النوع قد يمنع استيراده فى المستقبل!

أما اللحوم والفراخ والفواكه والخضروات فكان عمى يأتى بها فى سيارة نصف نقل كأننا مهددون بالمجاعة، والولائم تقام كل يوم فنأكل القليل ونرمى الكثير فى صفائح القمامة، وفى هذه الفترة بدأت بين عمى المليونير وبين سكرتيرته علاقة خاصة، "سحبت" خلالها منه ثروة تكفيها بقية العمر لتعيش عيشة الأثرياء!

ومضى يواصل فتوحاته التجارية وفى كل يوم له مشروع جديد، فكان ذات يوم يستعد لافتتاح معرض كبير لبيع الأجهزة الكهربائية مع شركاء له، فإذا "بشيطان" يقنعه بأن إنشاء مصنع للمكرونة يدر كسبا أكبر فانسحب فجأة من الشركة ودفع غرامة فسخ العقد وهى عدة عشرات من الآلاف، وتحول إلى إنشاء مصنع للمكرونة وبينما هو فى طور الإنشاء إذا بمنتفع آخر يقعنه بأن استيراد البغال من مالطة هو منجم الذهب الحقيقي!.. فأهمل المشروع وتفرغ للذهاب إلى وزارة الزراعة والحجر الصحى لبحث موضوع استيراد البغال والتصاريح اللازمة له إلخ وتمت كل هذه التحولات خلال ٥ شهور فقط لا غير!..

ولاحظت منذ البداية أن معظم أو كل صفقاتنا تنتهى بالخسارة أو بلا مكاسب تذكر، وناقشته فى ذلك فأصر على أننا نكسب كثيرا.. وأن الملايين آتية لا ريب فيها.. لكنى كنت أشعر أننى فى مركب غارقة.. أن

لم يكن اليوم فغدا ولم أستطع أن أصنع شيئا لمنع الكارثة.. ومضى عمى بتخبط أكثر وأكثر، وكانت آخر فتوحاته صفقة لاستيراد الجمال الحية من السودان.. بلا أية خبرة بالموضوع! ولاحت أمامى نذر النهاية واضحة.. ولم أستطع أن أدفع قدرا مكتوبا والناس نيام يا صديقى فإذا ماتوا انتبهوا.. وهكذا صحونا ذات يوم فإذا بالديون تحاصرنا من كل جانب.. وإذا بالبنوك تطالبنا بالسداد.. وإذا بالمليون جنيه وقد تبخرت تماما! خلال ٩ سنوات فقط لا غير!

وبدأنا رحلة الهبوط.. فبعنا المحلات التجارية ومكتب الاستيراد والسيارات لسداد الديون ثم استغنينا عن هيئة الموظفين.. والسائقين والخدم والأتباع.. أما السكرتيرة فلقد كانت فتاة "حصيفة" أكثر من الجميع وأحست باقتراب الكارثة قبل وقوعها بفترة كافية فافتعلت خلافا حادا معه وانسحبت بهدوء محملة بثروة كبيرة، أما أنا يا صديقى فقد بقيت فوق ظهر السفينة الغارقة حتى غاصت تماما تحت مياه البحر ولم أستطع أن أتخلى عن عمى الذى أغرقنى عند الرخاء بأفضاله.. وكان معى مبلغ خاص هو كل ما تبقى لى من أيام العز، فطالبنى به لنبدأ من جديد فأعطيته.. فطار هو أيضا خلال شهور أخرى.. وأسفرت الحقيقة عن وجهها الكئيب.. وانفض المولد فلا خدم ولا حشم ولا ملايين تتوالد بسرعة توالد الأرانب كما يقولون، بل احتاج عمى إلى الدور الأرضي من الفيلا الذى أقيم فيه ليؤجره

مفروشا ليواجه نفقات حياته، فتركته له واستطعت بأخر مبلغ كنت ادخره أن أحصل على شقة شعبية صغيرة انتقلت إليها، انتشلنى أحد الذين عملوا لفترة فى محلاتنا من أزمتى فعيننى بائعا للأجهزة الكهربائية فى محله الذى افتتحه بعد تركه للعمل معنا وأبقى الرجل بشهامة ليست غريبة على أمثاله على ما تبقى من كرامتى فزعم للناس أنى شريكه فى المحل! لكى لا أحرج أمام زملائه التجار الذين تعاملوا معى وأنا "مدير" المليون جنيه! وشكرت له ذلك كثيرا.

واكتشفت منذ أيام أنه قد مضت عشر سنوات بالضبط على اليوم الذى بدأنا فيه أنا وعمى رحلة المليون جنيه.. وتلفت حولى فوجدت نفسى كأننى كنت فى حلم عجيب وصحوت منه.. وقد خسرت نفسى وخسرت الكثير فلقد وضعت بيضى كله فى سلة واحدة فلم أتعلم شيئا، ولم اكتسب خبره بشىء ولم أتعلم مهنة، وأضعت وظيفتى الحكومية ونسيت ما تعلمته فى المدرسة الفنية التى تخرجت فيها، وقد كانت كل مهمتى هى الإشراف على أمور عمى.. وقد انفض المولد ولم تعد هناك "أمور" تتطلب الإشراف عليها ووجدت نفسى لا أساوى شيئا بالمقارنة بزملائى الذين حصلوا على الدبلوم وعملوا بوظائف عادية وعاشوا حياتهم العادية البسيطة، فقط أصبحوا خلال هذه السنوات العشر ومن خلال التطور الهادئ "شيئا مذكورا"! وتزوجوا وفتحوا بيوتا.. فى حين أصبحت أنا لا أملك شيئا و لا أجيد حرفة

معينة، وفى هذه اللحظة التى أراجع فيها حياتى أكتب هذه الرسالة لأقول لكل شاب فى مقتبل حياته لا تعتمد إلا على الله وعلى نفسك، وساعدك فى بناء مستقبلك.. فمن ينسى الله ينسه الله نفسه، فطوال عشر سنوات متصلة لم ندخل أنا وعمى مسجدا ولم نفرش سجادة للصلاة.

واكتب هذه الرسالة لأقول لكل شاب أن الملايين وحدها ليست أمانا ضد الزمن.. وأن أفضل ما يستند إليه الإنسان هو إيمانه بالله وثقته بنفسه وساعده، فأعظم شئ هو أن يشقى الإنسان ويعرق وأن يجمع الخبرات بنفسه وألا يعتمد على أحد فالله سبحانه وتعالى هو الأول والآخر وهو الرازق وحده!!

شيء ما فى هذه الرسالة يقنعنى بصدق كاتبها فى كل ما رواه بالرغم من غرابته، أما هذا الشيء فلا أعرف على وجه التحديد لكنه قد يكون رنة الأسى التى تشيع بين سطور الرسالة.. وقد يكون إحساسى بأنه فعلا فى لحظة تأمل ومراجعة لحياته.. وفى مثل هذه اللحظة يكون الإنسان عادة صادقا مع نفسه وبالتالى مع الآخرين!.. لذلك فما أحوجنا إلى مراجعة حياتنا كل حين لكى نتوقف ونحاول أن نعرف ماذا صنعنا بحياتنا والى أين نمضى بها وتمضى بنا، لكن المشكلة أننا عادة لا نتوقف لنراجع أنفسنا وحياتنا إلا بعد أن نخسر الكثير ولا نتعلم الحكمة عادة إلا بعد فوات الأوان.. وربما لا نتذكر أننا قد نسينا الله فأنسانا أنفسنا إلا بعد أن تدق فوق رؤوسنا المطارق!

لقد أعجبنى فى رسالتك هذه "اكتشافك" أن الملايين وحدها بغير ستر من عنـد الله سبحانه لا تغنى عن الإنسان شيئا.. وأنها ليست أمانا ضد الزمان. وهى ليست وحدها كذلك فعلا، ولقد ذكرنى ندمك على أنك لم تدخل مسجدا طوال سنوات الثراء والملايين

والإخلاص لعمك المليونير بندم مستشار لأحد ملوك بريطانيا "أفاق" على الحقيقة المرة وهو يحتضر فقال "ليتنى أخصلت لله مثل إخلاصى للملك!".

وأنـت والحمـد لله قد أفقت على هذه الحقيقة المرة وأنت فى مقتبل حياتك والعمر ممـدود أمـامـك إن شاء الله لكى تعوض كل ما فاتك.. ولكى تعيد بناء حياتك بعـرقك وبكدك وكفاحك.. وعندها لن تتطاير ثروتك إن شاء الله كما تبـخرت فـى الهواء ثروة عمك" فلقد تضافرت عليها عوامل عديدة منها إنعـدام الخبرة.. والتخبط وفلسفة تجارة "الخبطة الواحدة" التى أرسى قـواعدها تجار الانفتاح وهى ليست تجارة لكنها مقامرة وفى القمار هناك رابح وخاسر.. ولقد خسر عمك لأنه كان أقل خبرة، وأقل حظًا، وما مارسه عمك لم يكن له علاقة بقيم التجارة ولا قواعدها لذلك طار المليون سريعا لأن ما تأتى به الرياح تذهب به الزوابع كما يقولون، أى إن المال الذى يأتى بسهولة وبلا عرق ولا كفاح يذهب غالبا بسهولة أيضا إلى المنتفعين والشطار والسكـرتيـرات إلـخ، فلعلك تعلمـت من ذلك درس التجربة الأليمة، فابدأ حياتك من جديد يا صديقـى ولا تغبط أحدا على حظه فى الدنيا.. فالدنيا حظوظ كما تعلـم وقـد كان من حظك أن عشت هذه السنوات "المفتخرة".. فلا تغيـظ إذن زملاءك أن تزوجوا

وفتحوا بيوتا برواتبهم الصغيرة، فلقد عـاشوا الحياة الطبيعية بلا طفرات.. وهكذا تعيش الأكثرية.. بلا طفرات .. ولا تطورات درامية.. وأنت بالتأكيد لم تتذكرهم لتقارن حظك بحظهم خلال سنواتك المضيئة بالملايين والسيارات والخدم والأتباع.. فلماذا تتذكرهم بحسرة الآن.

أتلقى رسائل عديدة من قراء يطلبون من بريد الأهرام أن يساعدهم فى العثور على عمل إضافى بعد الظهر ليتمكنوا من مواجهة أعباء الحياة.. ورسائل أخرى يطلب أصحابها عملا فى الخارج لبناء مستقبلهم وشراء الشقة والزوجة ورسائل أخرى يطلب أصحابها فرص عمل أساسية لأنهم لم يعملوا بعد منذ أن تخرجوا لسبب أو لآخر، لكن هذه الرسالة تفتح أمامى نافذه على عالم لا أعتقد أن كثيرين يعرفون شيئا عن واقعة.. تقول كلمات الرسالة:

أنا يا سيدى طبيب شاب بمستشفى عام، أبلغ من العمر ٣٢ سنة ومتزوج وعندى طفلة عمرها عامان وقد وفقنى الله فى حياتى إلى حد كبير، فنجحت فى استكمال دراستى الطبية رغم ظروفى العائلية الصعبة فلقد نشأت فى أسرة فقيرة، وكان أبى موظفا صغيرا فى إحدى الوزارات ثم أحيل إلى المعاش، وأنا فى بداية مرحلة الدراسة الجامعية فواجهت قسوة الحياة فى سن مبكرة. وتغلبت على مشكلة نقص الدخل بإعطاء الدروس الخصوصية فى الرياضيات لطلبة المدارس.

وكنت "مدرسا" متواضع الأجر، لأنى أعرف معنى الحرمان فكنت أعطى للطالب حصتين كل أسبوع مقابل ٣

جنيهات فقط كل شهر. وقد بدأت عملى بطالب واحد. وكنت سعيدا بالجنيهات الثلاثة التى أكسبها من تدريسى له وأستعين بها على نفقات المواصلات إلى الكلية. وفى السنة التالية أصبح الطالب الواحد ثلاثة طلاب، وفى السنة التالية أصبحوا خمسة طلاب وأصبح إيرادى من التدريس ١٥ جنيها كل شهر. يسر لى هذا المبلغ شراء بعض الكتب. ولكنى فى السنة النهائية اضطررت إلى التوقف عن التدريس لكى أتفرغ للدراسة وانقطع عنى هذا المورد المهم فى فترة حرجة من حياتى.

ولم يكن أمامى مفر من الاستدانة لاستكمال تعليمى مع وعد بالسداد عقب التخرج والعمل، ووفقنى الله فى النجاح ووفقنى الله أيضا فى أن أدبر حياتى خلال فترة تجنيدى بصعوبة شديدة، حتى انتهت بسلام وعينت طبيبا بإحدى الوحدات الريفية.. وبدأت أعرف لأول مرة فى حياتى الاستقرار والاطمئنان للمستقبل، وكانت هذه الفترة هى أحلى فترات عمرى.. فالعمل مريح.. والناس طيبون والخير كثير والحمد لله. وكان دخلى معقولا خلال هذه الفترة من الكشوفات المنزلية.. ومن فحص المرضى الذين يترددون على الوحدة ليلا. وعرفت خلال هذه المرحلة معنى الوفرة لأول مرة فى حياتى فادخرت مبلغ ألف جنيه. وكان طبيعيا أن أفكر فى الارتباط بالإنسانة

التى أحبها من سنوات طويلة والتى تحبنى وترقب كفاحى فى انتظار الوقت المناسب للزواج، فخطبتها وواجهنا مشكلة الشقة وتكاليف الزواج وضاعف من صعوبة المشكلة اننى نقلت خلال هذه الفترة إلى القاهرة للعمل فى أحد مستشفياتها العامة ففقدت إمكانية الزواج والإقامة فى الوحدة الريفية. وتعجبت لذلك إذ إننى كنت فيما مضى أعرف أن الأطباء من أصحاب النفوذ العائلى هم الذين ينقلون إلى المدن الكبرى.. وأن من ليس معهم إلا الله من امثالى هم الذين ينقلون إلى الريف، لكنى تعلمت شيئا جديدا هو أن الآية قد انعكست الآن بسبب صعوبة الحياة فى المدن الكبرى ومشكلة الشقة للراغبين فى الزواج.. فأصبح الأطباء من أصحاب النفوذ هم الذين ينجح أقاربهم فى نقلهم إلى الوحدات الريفية للحصول على شقة بالقاهرة، وهكذا نقلت إلى القاهرة وأنقذتنى الإرادة الالهية بآية أخرى من آيات الله إذ استطعت العثور على شقة فى بيت أحد أقارب زوجتى فى حدود مبلغ استطعت جمعه بالاستدانة من إخوتى وأقاربى واستدانة زوجتى من إخواتها على أمل السداد عند تحسن الأحوال بعد أن ينجح الدكتور الذى هو أنا ويشتهر وتجرى النقود فى يديه أنهارا.

وأصبحت بذلك ربا لأسرة صغيرة سعيدة والحمد لله تغلق باب شقتها عليها وتستمتع بالاستقلال والمشاركة والحنان المتبادل، ولا

يعرف الناس عنها شيئا، وأسبغ الله علينا نعمته فأنجبنا طفلة جميلة أصبحت محور حياتنا بمشاغباتها ومرحها، ولعلك تسألنى الآن وما هى المشكلة: فأجيبك بأن المشكلة الآن يا صديقى هى أن هذه الأسرة الصغيرة السعيدة تواجه الحياة بمبلغ ٦٥ جنيها كل شهر هى راتبى وكل دخلى ولا جنيه واحد زيادة على ذلك، فليس لى دخل خارجى يساعدنى على مواجهة أعباء الحياة وليست لى عيادة أكسب من ورائها. وليست لدى أية فرصة للحصول على أى مورد غير راتبى والدكتور الذى كان أهله يتوقعون له أن يكبر سريعا ويكسب ويسدد الديون ويغرق أهله وزوجته فى النعيم. يعيش حياة متقشفة لا يعرف بأى معجزة يصل براتبه إلى نهاية الشهر. وأنا وزوجتى نواجه أياما قاسية ابتداء من منتصف كل شهر حتى أول الشهر التالى ويعلم الله كيف نمضى هذه الأيام اللعينة من كل شهر، ولا نجد أمامنا إلا الاستدانة ثم السداد أول الشهر ومواصلة الحرمان والتقشف.

ونحن لم نشتر أية ملابس منذ زواجنا إلى الآن، حتى ملابس طفلتى تلقيناها كنقوط عند مولدها، ولم نشتر لها غيرها حتى الآن، وطعامنا كله من الجمعية وكيلو اللحم من لحم الجمعية نقسمة إلى ٤ أقسام متساوية بمشرط الجراحة لكى لا يضيع منه جرام واحد بغير استفادة، وحياتى الجافة لا تعرف فترات الراحة المحدودة إلا حين أجد فرصة

عمل مؤقتة فى عيادة بعض أصدقائى من الأطباء حين يتركون عيادتهم للسفر أو لأداء امتحان، وهى فرصة ضئيلة تأتى على فترات متباعدة جدا ومع ذلك فهى تعطينا الفرصة لالتقاط الأنفاس ومواصلة الجهاد فى الحياة.

ولقد تدفعنى الظروف أحيانا حين تضيق بى الدنيا وأرى زوجتى الجميلة الطيبة التى تزوجت شقيقاتها من أزواج قادرين، تعانى معى حياتى فى صبر تدفعنى إلى الخروج فجأة للطواف على عيادات من أعرفهم من الأطباء اتنسم أخبار السفر أو الامتحانات لعل أحدهم يدعونى للعمل بدلا منه ولو ليوم واحد، أو حتى للكشف على مريض واحد بدلا منه ويكاد لسانى ينطق فأنادى من فرط ضيقى: وردية شغل يا إخوانى لصالح أسرة صغيرة وطفله محرومة: فيردنى الحياء. والكبرياء وأعود لأسرتى مهموما، والمهنة يا صديقى أصبحت بالنسبة لصغار الأطباء ناشفة. بطريقة لا تتخيلها فمن لا عيادة له لا أمل له فى مواجهة أعباء الحياة. ولا أعرف ماذا جرى للناس يا صديقى؟ لقد وضعت لافتة كبيره على مدخل شقتى تحمل إسمى عسى أن يرزقنى الله بكشف خاص بلا جدوى ومن يلتقون بى فى الحى الذى أقيم فيه يطلبون استشارات مجانية لوجه الله من تاجر البقالة إلى تاجر الفاكهة إلى صاحب الجراج القريب.. وأخجل ألا أجيب أسئلتهم فأجيب واكتب الدواء ولا أقبض شيئا سوى شكرا. يا

دكتر.. بغير واو على طريقة النطق باللاتينى.. فاكاد أقول لأحدهم. ياعم اعطنى بدلا من شكرا هذه كيلو من البرتقال فأسرتى لم تعرف الفاكهة منذ زواجي. لكن حيائى مرة أخرى يمنعنى وأحمد الله على ذلك ومن لا يجدنى يذهب للصيدلى ويشكو له أو جاعة فيعطيه الصيدلى الدواء بلا روشتة وتنتهى المشكلة ولا حاجه إلى الطبيب.

ثم تطور الأمر بعد ذلك تطورا مهمًا فلقد أصبحت ملابسنا أنا وزوجتى وطفلتى رثة بكل معنى الكلمة، حتى بدأت زوجتى تتجنب الخروج للمحافظة على أخر فساتينها اللائقة بمظهرها أمام أسرتها، أنا أنا فكيف أتجنب الخروج وأما مضطر للذهاب إلى عملى كل يوم، ولقد آلمنى كثيرا أن يستوقفنى حارس جديد لبوابة المستشفى أكثر من مرة ليسألنى عن سبب رغبتى فى الدخول، لأن مظهرى لم يعد مظهر طبيب... فاضطر لإخراج البطاقة له واتغاضى عن نظرات الاستعراب التى تفلت منه مشفوعة بكلمات الاعتذار.. ثم ينسانى بعد حين ويستوقفنى مرة أخرى.

وستسألنى فى النهاية ماذا أريد.. فاقول لك يا سيدى إننى أريدك أولا أن تعرف كيف نعيش لأن البعض مازال سادرا فى أوهامه ويتصور أن الطبيب يكسب دائما المئات والألاف، وأريدك ثانيًا إن استطعت أن تجد لى فرصة عمل بعد الظهر من ٢ إلى ٩ مساء، وليس ضروريا أن يكون فى المجال الصحى فهل تسطيع ذلك.

فى البداية إننى اضطررت لأن أنشر رسالتك لكى أتمكن من تحقيق. رغبتيك. على الوجه الصحيح. رغبتك الأولى أن "أعرف" والثانية أن "أستطيع" فأما الأولى فإنه لا يكفى يا صديقى أن أعرف أنا وحدى ما تريد رسالتك أن تصوره من واقع حياة شريحة جديدة انضمت خلال السنوات القليلة الأخيرة إلى قافلة المكافحين فى مجتمعنا. وإنما ينبغى أن يعرف معى الآخرون وخصوصًا من يهمهم الأمر. بل ومن الضرورى أن نعرف جميعا ماذا يجرى من تحولات وتغيرات فى واقع مجتمعنا لعل ذلك يدفع البعض لمراجعة أنفسهم وأوهامهم. فرسالتك هذه تلقى أضواء كاشفة على جوانب مجهولة بالنسبة للبعض عن واقع حياة شباب مهنة.. كانت حتى سنوات قريبة رمزا للثراء وطريقا إليه! ثم تغير الحال لأسباب عديدة وانقسمت بحدَّة كما انقسمت كل المهن والفئات فى مجتمعنا إلى فئات تجد كل شىء وفئات لا تجد ما قد تحتاج إليه.. أو على حد التعبير الشهير للدكتور طه حسين "إلى ناس يجدون مالا ينفقونه وآخرين لا يجدون ما ينفقونه" وهكذا الحال فى شرائح أخرى لكن الجديد فقط هو انضمام شباب هذه المهنة المرموقة إليها.

لقد كان هناك دائما كبار وصغار فى كل مهنة وفى كل مجال، لكن الفجوة استفحلت بلاشك خلال السنوات الأخيرة حتى فصلت بين الجانبين بفراسخ طويلة.

هذا عن الجانب العام فى رسالتك أما عن الجانب الخاص منها فلقد نشرت رسالتك، لأننى لا أملك لتحقيق رغبات قراء البريد وحل مشاكلهم سوى النشر. فهو وسيلتى الوحيدة لكى يلتقى من يحتاجون إلى عون الآخرين بمن يقدرون على معاونتهم.

ورسالتك بالذات يا صديقى مست قلبى كما تمسه دائما رسائل الشباب المكافح الذى يحاول أن ينحت حياته فى الصخر ليوفر لأسرته الصغيرة الحياة الكريمة فيعانى خلال ذلك الحرمان.. والتقشف فلا يفقد رغم ذلك أبدا الأمل فى غد أفضل.. فلا تفقد هذا الأمل يا صديقى وسيكون العد أفضل بكل تأكيد.. ولابد لكل إنسان فى الظروف العادية أن يبدأ حياته صغيرا ثم يكبر.. ومغمورا ثم يشتهر... ومحدود الرزق ثم موفوره. فهذه هى سنة الحياة يا صديقى... ولعل مما يخفف من آلامك أن الله قد وفقك إلى هذه الزوجة الطيبة الرقيقة وأنعم عليك بهذه الطفلة الجميلة... ولسوف تربط بينكما سنوات الكفاح هذه بالرباط المتين.. وسيأتى يوم تتذكران هذه الأيام الصعبة التى تقطعان فيها لحم الجمعية بمشرط الجراحة بمزيج من الحنين

والإشفاق مما عانيتما معا.. والإعجاب بصلادتكما فى مواجهة الحياة.. ولسوف تعرفان عندها أن السعادة كانت مقيمة فى بيتكما بغير أن تدركا.. وأن أيام الصفاء رغم المعاناة هذه لا تعوض ولا تقدر بمال، ولسوف يأتى يوم يطوف بعيادتك فيه طبيب شاب متزوج حديثا ـ يتنسم ـ أخبار السفر أملا فى نوبة عمل ترطب جفاف حياته وتسد بعض مطالبها، فانظر إليه حينئذ عجاب يا صديقى وعاونه بقدر ما تستطيع، ولا تصعَّر له خدك كبرياء، فلو عاون الكبار الصغار فى كل مجالات الحياة... ولو تذكروا جميعا أنهم كانوا ذات يوم صغارا يقفون نفس موقف الصغار أمامهم الآن لتخففت الحياة من كثير من مصاعبها، ولوجد الشباب من يمدون لهم الأيدى بروح صادقة من المشاركة والمواطنة، لكن مأساتنا أن صغارنا قد يكبرون فيفعلون غالبا كل ما عابوه على كبارهم فى زمانهم، وكل ما عانوا هم منه من قبل. والنتيجة أن الساقية تدور ولا تسمع من الجميع إلا نفسى... نفسى... فتزداد الحياة قسوة وصعوبة لأن من لا يرحم لا يرحم وهذه هى المصيبة.



واحة الكتب

"بدون مقدمات سأقول لك إننى فتاة عمرى ٢٤ سنة راسبة فى دبلوم التجارة كنت أعمل "وكيلة محام" وكان محاميا وتاجرا فى نفس الوقت فكنت أجلب له الزبائن وأعقد له الصفقات.. وكانت ظروف العمل تضطرنى للسفر والاغتراب والمبيت أحيانا خارج البيت ولم يكن أحد من أسرتى يسأل عنى أو يهتم بى، وقد تتصور أننى أكتب إليك لأطلب منك عملا أخر، لكن هذا غير صحيح لأنى أكتب إليك لأنى أطلب منك عريسا لى! إننى أعرف أن بريد الأهرام لا ينشر طلبات الزواج لكنى أرجو ألا تجعل من ذلك سببا للإحجام عن مساعدتى فكل ما أريده منك هو اسم وعنوان شاب أو رجل يرغب فى الزواج وسأتصل "أنا" به وأعرض عليه رغبتى فى الزواج منه "واعذرنى فى هذا الأسلوب لأنى لا أعرف كيف "أصيد" العرسان كما نجحت كل جاراتى وصديقاتى فى "صيدهم".

فلقد تزوجت بنات الحى واحدة وراء أخرى ولم يبق غيرى وأصبحت أخشى عيون جاراتى وقريباتى.. اللاتى يتساءلن بنظراتهن كلما زفت عروسة جديدة وكأنهن يسألننى: "وأنت متى ستتزوجين؟ "ولقد أصبحت أكره هذه النظرات فى عيون

قريباتى وجاراتى وأكره أن التقى بهن فى فرح.. أو فى مناسبة اجتماعية.. وأقول لنفسى وماذا أفعل يا ربى هل اشترى عريسًا.. ومن أين؟

أنت لا تعرف حجم الحسرة التى تحس بها فتاة فى سن الزواج كلما تزوجت صديقة لها، وخصوصًا إذا كانت أصغر منها بكثير.. وأنت لا تعرف معنى أن توجد هذه الفتاة فى فرح وترى صديقاتها وكلهن متزوجات وفرحات بأزواجهن، حتى ولو كانوا أزواجا "لا يسرون الخاطر".. والفتاة وحيدة وسطهم تضع يدها على خدها! إننى والله العظيم فتاة متدينة ومظهرى حسن وعلى قدر متوسط من الجمال وعندى أخلاق.. وأنا شريفة.. وطاهرة.. وليس بى ما يخجل أبداً.. لكن كل ذلك لا يفيدنى بشىء.. وليس أمامى غيرك لأكتب إليك أرجوك أن "ترزقنى" بعريس يرفع معنوياتى.. ويحفظ كرامتى أمام زميلاتى.. أى عريس.. يا سيدى.. ولو "حرامى"! فسأرضى به وأقبله فأنا أريد أن أذوق طعم الفرحة فى حياتى وأريد الاستقرار والأمان.. فطوقنى "بجميلك" هذا ولن أنساه لك طوال عمرى والسلام.. إمضاء..".

لقد أخطات الطريق إلى ما تطلبين يا آنستى.. لكن رسالتك تكشف عن دلالات اجتماعية خطيرة.. فإلى هذا الحد تتهافتين على طلب الزواج يا آنستى وأنت مازلت فى الرابعة والعشرين من عمرك إلى حد أن تطلبى زوجا ولو كان لصا.

ثم تعلنين بجرأة أنك ستقبلينه وترضين به!.. إننى لن ألومك وحدك فلا شك أن زلزالا عنيفا قد هز القيم وغير الكثير مما كنا نعرفه عن المثل والشرف والحياة الشريفة.. وأنى لاعتبر رسالتك هذه شهادة خطيرة على ما جرى لمفاهيم البعض من تغيرات وتحولات.. لكنى سأقول لك فقط إننى لا أؤيدك فى تفكيرك ولا أستطيع أن أساعدك فيما تريدين ولا أظن أن قيمك هذه تغرى أى طالب زواج بالاقتراب منك.. "فتماسكى" قليلا لكى لا تقبلى ما لا تقبله الحرة، ولكى لا تجدى نفسك فى النهاية وقد تزوجت ممن هو أسوأ من "حرامى"! ولعلك تفهمين ما أعنى!.

فالزواج ليس "صيدا وقنصا" كما تتصورين وإن كنت "متدينة"

قرأت رسالة الفتاة ابنة الأربعة والعشرين والتى تشكو من الوحدة وتتلهف على الزواج وتطلب زوجاً بأى وضع ولو كان حرامياً .

ووجدت نفسى أمسك بالقلم لأكتب هذه الرسالة لك لأنصحها بالتريث كأخت لها من بعيد مرت بتجربة زواج فاشل. أهم أسباب فشله هو التسرع فى الاختيار فأنا يا سيدى سيدة فى الثلاثين حاصلة على شهادة جامعية ولى أخوة كثيرون بالمدارس والجامعات، وأنا كبرى إخوتى ووالدى موظف بسيط بالدواوين ترهقه كثرة الأبناء، فكنت أتقدم فى دراستى ببطء شديد لا لنقص فى استعدادى للتعليم وإنما لظروف حياتى الصعبة، فقد كنت دائماً آخر من يقتنى الكتاب المدرسى وكنت أعجز عن تدبير نفقات السفر إلى مقر الكلية فلا أحضر المحاضرات إلا خطفاً كلما سمحت الظروف، وقبلها أمضيت فترة التعليم الثانوى كلها بمريلة واحدة وأمضيت فترة الدراسة الجامعية كلها بفستانين اثنين لا ثالث لهما، كنت أرفوهما كلما تمزقا وأحرص عليهما حرصى على شرفى .

لذلك تأخرت فى التخرج فتخرجت وأنا فى الثامنة والعشرين وتوقفت لأراجع حياتى ووجدت نفسى قد كبرت

وموعد قطار الزواج يفوتنى فلم أفكر فى العمل أولاً لأعوض إخوتى الصغار عن حرمانهم، وإنما فكرت فى الزواج وأحست إحدى صديقاتى بما يدور فى خاطرى، فقدمت إلى شاباً راغباً فى الزواج، ميسور الحال لكنه لم يحصل إلا على الإعدادية ويفك الخط فقط ويعمل بتجارة الشنطة فيسافر عدة شهور بتجارة ويعود بتجارة، وأحياناً يبقى للعمل فى إحدى الدول العربية لعدة شهور ثم يعود، هكذا ووافقت على الزواج منه بالرغم من اعتراض أبى ونصيحته لى بالإنتظار والصبر قائلاً إن ظروفنا سوف تتحسن عقب تخرج أخى الذى يلينى ولا داعى للتسرع، لكننى لم أسمع نصيحته وتزوجت على وجه السرعة، وقال لى خطيبى إن له تجارة بالخارج يديرها صديق له، وأنه يرغب فى الزواج سريعاً لكى يسافر ويحضر ماله ليشترى لى الأثاث ورأيت الصدق فى عينيه فقبلت كل شىء فتزوجت فى شقة خالية إلا من غرفة نوم قديمة، وبلا شبكة ولا مهر، وخلال فترة الخطوبة وشهر العسل اشترى لى زوجى أحلى الملابس وأفخر أنواع الحلوى التى حرمت منها وأنا صغيرة، واشترى لى فاكهة فاخرة لم أذقها من قبل، ومضت الأيام سعيدة لكن الدنيا لا تستمر على حال واحد كما تعرف، فمنذ أن تحركت طفلتى فى أحشائى تغير زوجى وبدأت الخلافات تطل بوجهها الكئيب على بيتى الصغير وبدأ يسىء معاملتى إلى حد الضرب والإهانة بلا سبب، وكلما جاء أهلى لزيارتى أساء معاملتهم

حتى انقطعوا عن زيارتى فى نفس الوقت الذى يزورنا فيه زملاء له للتحدث إليه فى شئون تجارية فيلقاهم بترحاب كبير واحترام شديد، وحرت أنا وسط الجميع هو يقول إن أهلى لا يحترمونه وأهلى يقولون إنه لايقدرهم ولا يريد رؤيتهم وأنا حائرة أريد أن أرضى زوجى، ولا أريد أن أغضب ربى فى علاقتى بأسرتى ثم سافر وأنا حامل وتركنى بلا نقود، وطالت سفرته لعدة شهور فكتبت إليه أطلب منه نقوداً لأنى حامل وأحتاج إلى رعاية طبية، فكتب إلى يقول إنه يرسل إلى أهله ٥٠٠ جنيه كل شهر، وأنه كلفهم بدفع إيجار الشقة عنى وإعطائى عشرة جنيهات كل شهر، فصبرت واحتملت إلى أن جاءت الولادة، ووضعت طفلتى بعملية قيصرية تحمل والدى تكاليفها وعاد زوجى فرحبت به، ولم أشك إليك ما عانيته من حرمان خلال غيابه، ولكنى رجوته فقط أن يسدد لأبى تكاليف الولادة القيصرية، فرفض بإصرار وجاء أبى وأمى لزيارته فأغلق باب الشقة وكلف أحد جيراننا أن يصرفهما بحجة أننا غير موجودين فى الشقة، ففقدت احترامى بين جيرانى، وواصلت صبرى على أمل أن تمضى سفينة الحياة لكنه تمادى فى الإساءة إلىَّ فلأتفه الأسباب يكيل لى اللكمات لاعتقاده أننى لا أحبه، وكنت أؤدى الخدمة العامة انتظارًا للتعيين فأخرجنى منها لأنه يغار علىَّ ولا يريدنى أن أعمل، ولا أن يكون لى دخل خاص لكى أساعد به أسرتى، وأرد دين أبى على وضربنى يومًا فسال الدم من

ذراعى ووجهى وأغمى، على واستدعى جيرانى أبى وأمى فأشهد أبى الجيوان على إصاباتى، وأراد تطليقى منه لكن زوجى تمسح بى وعاهدنى ألا يضربنى مرة أخرى، وطلب بقائى معه لكى لا تتبهدل البنت بيننا، فوافقت وقبلت توبته فغضب أبى وتركنى لمصيرى ولم يتوقف زوجى بعد ذلك عن ضربى مرة أخرى.

ثم سافر زوجى من جديد ورفض أبى هذه المرة استضافتى فى شقته لأنى لا أسمع كلامه، وبقيت فى شقتى مع طفلتى ابنة العامين ولم يرسل إلى زوجى كالعادة نقوداً وأمرنى أن أحصل من أهله على سبعة جنيهات كل شهر، وكان الوقت صيفاً وليس هناك عمل مناسب لى لأن المدارس مغلقة وليس فى بيتى شىء أقيم به أودى وأود ابنتى الطفلة، فذهبت لأعمل بائعة فى بوفيه أبيع ساندويتشات الطعمية والبسكويت، وأخرج كل صباح حاملة طفلتى على ذراعى وأبذل جهدى لكى لا تقع عيناها على طعام أو حلوى فى الطريق فتطلبه وأعجز عن شرائه لها، بالطبع، وكان نظام العمل أن يدفع صاحب البوفيه الأجر فى نهاية الشهر والأيام طويلة يا صديقى بلا نقود وبلا زاد، اللهم إلا بضعة سندويتشات من المحل أسد بها جوع طفلتى خلال نهار العمل، كلما صرخت باكية وكانت الساعات تمضى طويلة والجوع يقرصنى فلا أستطيع أن أمد يدى إلى طبق السندويتشات فى البوفيه حرصاً على مظهرى أمام العمال، وأمام

صاحب البوفيه، لأنهم يعرفون أننى متزوجة وأحمل الليسانس، وأمضى أجتر أحزانى إلى شقتى ففوجئت ففوجئت فى الصباح الباكر بمن يطرق باب شقتى وأغلق بابها على أسرارى، فلا يعرف عنى أحد كيف أعيش أو كيف تمضى بى الحياة، وبرغم حرصى وتحفظى، فلا أعلم كيف أحست إحدى جاراتى بما أعانيه، وكانت جارة بعيدة نسبيًا عن شقتى لأجد هذه السيدة تدخل على والخجل فى ملامح وجهها، وهى تحمل فى يديها لفائف كبيرة فيها طعام كثير وملابس لطفلتى وحلوى، وأن أنس كل شئ فى حياتى فلن أنسى صورة طفلتى حين رأت الطعام فى يدى جارتى فخطفته قبل أن تضعه واندفعت تأكله بلهفه وأحسست بقلبى يتمزق فأحنيت رأسى لأخفى دموعى فإذا بدموع هذه الجارة الطيبة تسبقنى وهى تمد يدها لتعطيها المزيد من الطعام، حتى شبعت ثم تدعونى بحياء لتناول الطعام وتمد يدها إليه لتأكل معى وتزيل عنى الحرج ودموعنا معا تختلط بالطعام.

ولا أعرف كيف عرف أبى بعد ذلك بما أعانيه ولعله عرف من نفس هذه الجارة الطيبة، ففوجئت به يدخل شقتى ويحتضننى ويحتضن طفلتى وهو يبكى ويعتذر ثم حملنى معه وطفلتى إلى شقته، ومنعنى من الخروج للعمل إلى أن يأتينى التعيين فأعمل مدرسة وعبرت هذه المحنة لكن الضربة الأخيرة جاءت إلى من زوجى وهو بعيد، فقد

طالبنى بترك الشقة لصاحب البيت لأنه سيبيعها إليه بمبلغ يستثمره فى تجارته والسفر إليه لأنه وجد لى عملاً هناك فخفت من تقلباته إذا ضاعت الشقة ورفضت تركها فخيرنى بين ترك الشقة والسفر وبين الطلاق، فاستجمعت إرادتى واخترت الطلاق على أمل الإحتفاظ بالشقة لى ولطفلتى، وبسبب مشكلة قانونية أكاد أفقد هذه الشقة أيضاً الآن فقد كان زوجى قد طلب لجنة تقدير الإيجارات فخفضت الإيجار إلى النصف، وظل زوجى لمدة عام لا يدفع الإيجار لأن التقدير بأثر رجعى وخلال غيابه طلب منى والد زوجى إيصالات الشقة لكى يكلف محامياً يتولى القضية فأعطيتها له، وأوعز أهل زوجى بعد ذلك حين رفضت السفر لصاحب البيت بأنه ليس لدى ما يثبت دفعى الإيجار، فأقام دعوى يطالبنى فيها بدفع إيجار عشرة شهور سابقة، لأنه يعلم أنه ليس لدى إيصالات بها، وأنا لا أكتب إليك هذه الرسالة أستجدى مالاً أو شفقة، لكن لأطالبك حلاً لمشكلتى ومشاكل كثيرين غيرى بأن تقترح ألا يسمح القانون لأى صاحب عمارة بأن يطالب بإيجار متأخر يزيد على ٣ شهور لأن المطالبة بأكثر من ذلك هى مؤشر اجتماعى خطير يتيح للملاك فرصة التلاعب فى الإيصالات وإدعاء عدم دفعها ثم المطالبة بإيجار شهور عديدة تكون مبرراً كافياً لطرد السكان إذا عجزوا عن الدفع، وأكثرهم سيعجزون كما تعلم ومن المحتمل جداً أن يفقد الإنسان إيصالات تسديد الإيجار فماذا يفعل إذا

جاءه مالك يطالبه استنادًا إلى ذلك الإيجار عشرين شهراً سابقة ألا يعجز كثيرون عن السداد فتتضاعف المشاكل الاجتماعية إننى أطالبك بحقى عليك كقارئة بأن تؤدى هذه الأمانة وأيضاً أن تسدى النصح للفتاه المتلهفة على الزواج بأن تتريث وتحسن الاختيار لكى لا تواجه ما واجهته ولكى لا تعانى ما عانيته بسبب الاندفاع إلى الزواج بلا رؤية فهلا تفعل ؟

أننى لن أناقش الجانب القانونى فى رسالتك لأن هناك من القانونيين من هم أقدر منى على ذلك، لذلك فإنى أدعوهم لمناقشة اقتراحك ودراسته وتقييمه لكنى سأناقش الجانب الاجتماعى منها وأول سماته أن رسالتك هذه تعكس فى رأيى إحدى مشاكل عصر الهجرة الذى نعيشه الآن، والتى أتلقى رسائل عديدة تروى صوراً مختلفة لها.

كما إنها أيضاً تعكس صورة بشعة للمشكلة الأزلية مشكلة المال الذى قال عنه سوفوكليس إن البشرية لم تعرف أسوأ منه يفسد الرجال ويحطم المثل ويفرق بين الأشخاص، ولسوف تعجبين عندما تعرفين أن ذلك قد قيل فى رواية أنتيجون التى كتبت قبل ميلاد المسيح، ومازالت الكلمة صادقة حتى الآن بل جاء زماننا بمشاكله ومتاعبه ليؤكدها ويجددها ويزيدنا اقتناعاً بها، فالنقود هى سر معاناتك فى حياتك المتقشفة قبل وبعد الزواج، وهى أيضاً سبب تهدم حياتك على صخرة الشقة التى يريد زوجك بيعها والحق أننى لا أريد أن أجدد أحزانك، لكنى سأقول لك فقط إنك أخطأت كثيراً فى حق نفسك

وفى حق طفلتك باحتمال كل هذا العذاب، وكل هذا الهوان وكل هذا الحرمان فى حياة لم تكفل لك الكرامة ولا الأمان ولا حتى ضرورات الحياة، ولا أعرف لماذا احتملت كل ذلك والدلائل تشير منذ البداية إلى استحالة استمرار الحياة الكريمة مع مثل هذا الزوج؟ لا لأنك جامعية وهو يفك الخط فهذا وحده ليس مبرراً كافياً لفشل الزواج، وإنما لأنه ينطوى بكل أسف على إحساس قوى بالنقص تجاهك وتجاه أسرتك، ووجود هذا الإحساس لا يسمح له بالتعامل معهم ومعك تعاملاً سليماً خالياً من الحساسيات، وهو قد رفض فى رأيى فكرة عملك ليس لغيرته ولا لعدم رغبته فى أن يكون لك دخل تساعدين به أسرتك كما تتصورين، وإنما لأن عملك يتيح لك فرصة الاستقلال عنه وإمكانية مواجهة الحياة بدونه وهو يريدك كما أتصور شديدة الاعتماد عليه، لكى يزداد امتلاكًا لك وتسلطاً عليك وهو واثق تماماً من قبولك لكل شئ ومن الاستمرار فى الحياة معه مهما فعل بك حتى، ولو أدماك كل يوم ضرباً وتعذيباً، لقد أسأت الاختيار لا شك فى ذلك، وقد دفعت ثمن ذلك غالياً، ونحن على أية حال لا نتعلم الحكمة بلا ثمن وإنما نتعلمها بالثمن الغالى من أخطائنا وتجاربنا المريرة.

لذلك فإنى أعتبر وثيقة طلاقك رغم كراهيتى له عمومًا وثيقة تحريرك من هذه العبودية الظالمة التى لم تحصلى خلالها بكل أسف حتى

على ما كان يحصل عليه العبيد من كفافهم، لقد عشت قصة حرمان طويلة يا سيدتى لكن أبشع صورها على الإطلاق هو ما فرضته الظروف على ابنتك البريئة ولا غفر الله لمن رضى لها بأن تعرف الجوع القاسى فى هذه السن المبكرة، فهل أقول إنك أجرمت فى حقها حين قبلت لها ذلك رغماً عنك، وقد كان حقاً أن تلجئى لأهلك مهما حدث لتدفعى عنها الجوع أولاً ثم تنظرى فى أمرك كما تشائين ؟ إننى لا أريد أيلامك بأى حال فلقد عانيت الكثير منذ طفولتك وحتى زواجك التعيس، لكنى سأقول لك فقط إن كل ليل لابد له من نهاية وأن نصيب الإنسان من الدنيا لا يمكن أن يكون شقاء كله، ولابد أن الأيام تدخر لك أياماً سعيدة فى علم الغيب، تعوضك عما لقيت من شقاء، وثقى أن وقتك رغم ذلك لم يضع هدرًا فمن عرف من لا يصلح له فلقد عرف بطريقة خفية من يصلح له ومن يلائمه، وسوف يساعدك ذلك بالتأكيد على حسن الاختيار ولابد أن ننظر إلى الأمام دائماً بقلب متفائل مهما واجهنا من صعاب وعذابات.

وأنصحك بأن تتذكرى دائماً ما أتذكره كلما ضاقت بى الحياة وهى كلمات الشاعر التركى "ناظم حكمت" التى كتبها إلى زوجته من سجنه وهو فى أشد حالات المعاناة والتعاسة: "أجمل الأنهار لم نرها بعد، وأجمل الكتب لم نقرأها بعد، وأجمل أطفالنا لم نرزق بهم بعد وأجمل أيام حياتنا لم تأت بعد" فإن أجمل أيام حياتك لم تأت بعد

ولسوف تأتى بالتأكيد إن شاء الله، ولا شك أن كثيرين سوف يقدرون فيك هذه القدرة المصرية جداً على الصبر والإحتمال والرغبة رغم كل شيء فى الاستمرار تماماً كقصص الأمهات الطيبات فى الحكايات القديمة، وأعتقد أن مشكلتك الأساسية الآن هى العمل وربما استطعت معاونتك فى حلها بشكل أو بآخر، أما مشكلتك القانونية فقد يستطيع أحد أصدقاء بريد الأهرام من أفاضل المحامين مساعدتك فيها فاتصلى بى يا سيدتى وليفعل الله ما يريد .

لا أعرف كيف أبدأ رسالتى فأنا فى الحقيقة خجلة من نفسى أكثر من أى إنسان أخر، وأنا أكتب إليك لعلك تخفف عنى بعض الأمر فأنا سيدة فى الثلاثين من عمرى جميلة ومثقفة وأعمل عملا مرموقا، وقد عشت حياتى كأى فتاة أحلم بالبيت السعيد الذى يضمنى مع زوجى وأبنائى لكن الأحلام شىء والواقع شىء أخر، فتزوجت من إنسان لا تربطنى به أية رابطة سوى وثيقة الزواج... وعشت معه سنوات اكتشفت خلالها أن هناك فوارق شاسعة بينى وبينه فى كل شىء: فى الشهادة وفى التعليم وفى البيئة وفى طريقة التربية. ولم أكتشف كل هذه الفوارق للأسف إلا بعد الزواج وبعد أن أنجبنا طفلاً جميلاً فتحملت الحياة خيرها وشرها، وكان من الممكن أن تستمر بنا سفينة الحياة هكذا إلى مالا نهاية، لولا أنه فى هذه الظروف بدأت مشكلتى الحقيقية.

ففى هذه الظروف زرته فى مكتبه لأمر من الأمور أما هو فهو أحد أقاربى وهو شخص ناجح ومرموق يلجأ إليه دائما أفراد الأسرة لحل مشاكلهم فيحلها لهم بأذن الله ووالدته تفخر به وتتكلم دائما عنه باعجاب، ويبدو أن عدوى إعجابها به وفخرها به قد امتدتا إلىَّ أنا أيضا. فأصبحت أفخر به وبانتسابه

إلى عائلتى وفى هذه الزيارة "التاريخية" لمكتبه رحب بى بحرارة شديدة حتى كاد من فرط سعادته بى أن يشيل الدنيا أمامى، وفرحت باستقباله لى وحرارته وطال بنا الحديث ففتحت له قلبى وفتح لى هو أيضا قلبه وشكا لى كثيرا من زوجته التى أحالت حياته إلى جحيم والتى لا تصلح لرعاية طفليه لأنها شبه مجنونة وعنده ما يثبت ذلك لكنه يشفق عليها وعلى طفليه من عواقب الأنفصال فحاولت كثيرا أن أهدئ من ثورته.. وأن أرده عن تفكيره. ولم يخطر ببالى خلال ذلك أن هناك هدفا يتعلق بى فى كل ذلك، لكنى وجدت نفسى بعد ذلك شديدة الاهتمام به. وقد نجح فى ذلك ببراعة لأنه لم يترك نقطة ضعف فى حياتى إلا واستغلها لكى يدخل منها إلى قلبى.. وفعلا دخل إلى قلبى وأصبحت مغلوبة على أمرى معه.. واتفقنا خلال هذه الفترة على كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا، ولكى لا أفقد احترامى لنفسى أو أشعر بأنى خائنة فقد طلبت من زوجى الطلاق لأحرر ضميرى مما يعانيه ولأبدأ حياتى السعيدة مع قريبى، ووافق زوجى على الطلاق بسهولة وقبلت كل مطالبه وتنازلت عن كل حقوقى وتم الطلاق بسرعة وأنا غير نادمة عليه!

وعشنا أياما سعيدة بعد الطلاق نلتقى كل يوم ونتحدث تليفونيا كل ساعة ونحسب بالدقائق والساعات أيام العدة ماذا مضى منها وماذا بقى؟ وبعدكم يوم سوف نحقق أحلامنا الوردية؟ ثم لاحظت

فجأة مع اقتراب أيام العدة من نهايتها فى أحاديثه معى نغمة جديدة لم ألحظها من قبل. فقد قال لى ذات يوم خلال حديث طويل أنت صغيرة وجميلة وكثيرون هم من يتمنون الزواج منك بعد انتهاء العدة.. ولم أفهم هذه الإشارة فى البداية بل تصورتها لغبائى وسلامة نيتى غزلا رقيقا لى، فازددت رضا عن نفسى وسعادة بها، ومضيت أعد نفسى للحياة الجديدة السعيدة فأشترى بعض الفساتين وأهتم بنفسى لكن النغمة الجديدة تكررت يوما بعد يوم، ثم أضيفت إليها نغمة أخرى هى الحديث لأول مرة عن صعوبة الحياة هذه الأيام المادية والأهوال التى تنتظره من جانب زوجته فى حالة زواجه بأخرى ونفقات أولاده.. إلخ.. وهنا فقط فهمت ولأول مرة مالا يريد أن يصرح به. وحين فهمت.. شعرت فجأة وكأنى قد هويت فى قاع بئر سحيقة أو كأنى قد سقطت من سطح أعلى عمارة فى القاهرة إلى الطريق يا ربى.. هذا حقا ما يريده.. وبهذه البساطة؟ وبعد أن هدمت أسرتى وحياتى من أجله؟ لقد أحسست أنى أريد أن أجرى فى الشوارع ممزقة الثياب حافية القدمين لأصرخ وأصرخ حتى أفرغ كل ما فى صدرى من حرقة وألم.. ورغم كل ذلك فلن تصدقنى إذا قلت لك إننى لم أندم على شئ مما فعلته.. ولم ألمه على شئ ولم أصفه بأية صفة يمكن أن تقال فى حق رجل اتخذ هذا الموقف من أمرأة فى مثل ظروفى.. بل لعلى عذرته بعض الشيء فى صعوبة الحياة.. وصعوبة المشاكل التى يواجهها! لكنه يبدو

أن التسامح يزيد من طمع الآخرين فى الإنسان... فلقد سامحته فيما حدث وقلت له إن الحياة فعلا صعبة وأصعب منها أن تهرب من زوجتك، وطلبت منه أن يعيش لأولاده أما أنا فليتولانى الله برحمته. لكنى لن أكون لأحد بغير زواج.. وسأعيش على حبه إلى أن تجد الدنيا لنا مخرجا، فإذا به يريدنى كما أنا بحجة أننا متحابان ولا سبيل أمامنا سوى ذلك، فغادرته وأنا أتمنى لو لم يكن قد صارحنى بذلك لكى لا تهتز صورته فى خيالى.. وتركته وأنا لا أريد أن أراه مرة أخرى أو أن أسمع اسمه بعد أن اهتزت المبادئ والقيم فى نظرى وأصبحت على يقين من أنه لا مبادئ هناك ولا قيم ولا قرابة فى الدنيا.

وأنا الآن أكتب إليك هذه الرسالة لأسألك بضع كلمات تمنحنى الهدوء النفسى وتريح قلبى.. لكن أرجوك ألا تلومنى.. لأن لومى لنفسى أكبر من أى لوم فماذا ترى فى قصتى؟.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

إننى أرى فى قصتك يا سيدتى... أنك قد سقطت فعلا فى قاع بئر سحيقة وأنك تحتاجين إلى إرادة قوية وإلى شجاعة لكى تنتشلى نفسك منه قبل أن يجرفك التيار إلى ما هو أبعد من ذلك.. فالحق أنى أخشى من تسامحك الغريب هذا الذى غفرت به له بسهولة تدمير حياتك وهدم معبدك. بأحلام وردية لم تلبث أن تبددت فى الهواء حين اصطدمت بأرض الواقع وأخشى أن تواصلى، تسامحك، وهو ليس فصيلة فى هذه الحالة فتنسين له أيضا بعد قليل غدره بك ورغبته فيك كما أنت، فتلتقيان من جديد لتواصلا الحديث عن صعوبة الحياة، وتخدعان نفسيكما عن حقيقة وضعكما.

أننى أقاوم بصعوبة أن ألومك بقسوة على ما فعلت فلقد أقدمت برعونه شديدة على تدمير حياتك وجريت وراء أوهام.. كمراهقة معصوبة العينين لا ترى الطريق الواضح أمامها وهو طريق خاطئ منذ البداية.. ويكفيك ما تعانينه الآن لكنى فقط أتساءل أين طفلك الجميل فى هذه القصة كلها؟ هل تنازلت عنه هو الآخر مع باقى ما تنازلت عنه لكى تتخلصى بكل الطرق من زوج اخترته بإرادتك

وعشت معه سنوات باختيارك إلى أن التقيت بمن قادك إلى هذه الهاوية؛ إن كان ذلك ما حدث فلقد خسرت كل شئ فعلاً، وأنت بذلك شخصية مندفعة تسيطر عليها عواطفها وتقود تصرفاتها ولا سبيل للعقل عليها كثيرا... لكنى أقول لك يا سيدتى أن ما حدث رغم قسوته.. وبشاعته كان منطقيًّا.. فأنت حين كنت زوجة.. كنت مجرد قصة حب رومانسية لرجل متزوج، ورغم أنها قصة محرمة فإن عبئها هين عليه.. لأنها لا تكلفة شيئا ولا تحمله أية مسئوليات، لكنك حين استجبت لعواطفك وحدها وحصلت على الطلاق لم تعودى منذ هذه اللحظة مجرد قصة حب رومانسية.. وإنما أصبحت "مسئولية" كبرى... أو كارثة بمعنى أصح تعنى شقة أخرى.. وخلو رجل ونفقات أولاد.. ونفقات أسرتين وقضية أمام محاكم الأحوال الشخصية إذا رفضت الزوجة الأولى الموافقة على زواجك منه وكانت سترفض بكل تأكيد، لذلك تبخرت الرومانسية سريعا.. وعاد بسرعة إلى "الواقعية"... والحديث عن صعوبة الحياة.. ومشاكل قانون الأحوال الشخصية، والسؤال الذى لابد أن يثار هنا هو أين كان كل ذلك حين أقترب منك واستغل فيك كل نقاط الضعف، ليصل اليك؟ وأين كانت كل هذه "النظريات" الواقعية العظيمة؟

وأيا كانت مسئوليته عما جرى لك.. فمسئوليتك عنه هى الأولى والأخيرة، فإن حياتك وشرفك هما مسئوليتك أنت قبل أن تكون

مسئولية الآخرين، وإذا كان القانون العام لا يحمى المغفلين.. فقانون الحياة أشد قسوة معهم فى هذه الحالة، لأنه يدعهم يدفعون ثمن حمقهم وغفلتهم من أعصابهم وسعادتهم واستقرارهم.. "بلا عزاء.. فضعى النهاية يا سيدتى لهذه القصة.. وأفيقى فشريكك فيها ليس جادا ولا يريدك إلا كما أنت الأن قصة رومانسية فى الظل بلا مسئولية وبلا متاعب.

فتوقفى الآن عما تفعلين وغالبى نفسك فأنت مغلوبة على أمرك معه فعلا.. وأعيدى حساباتك.. ولاتنسى منها أهم شىء فيها وهو طفلك الجميل.. فإذا كنت قد نصحت الطرف الآخر بأن يعيش لولديه فلماذا لا تنصحين نفسك بالعيش لطفلك.. مع زوجك إن سامحك وغفر لك.. أو وحيدة إلى أن تبدئى حياة جديدة مع لا تقف بينك وبينه "شومة" قانون الأحوال الشخصية. ولا "صعوبات الحياة" التى ننساها خلال استسلامنا لمشاعرنا.. ثم نتذكرها فجأة عندما نرغب فى التخلص من إحدى حماقاتنا!.

أبدأ رسالتى بأن أعرفك بنفسى: إننى يا سيدى مستشار فى إحدى محاكم الاستئناف بالوجه القبلى، وأقيم فى شقة فاخرة بها جميع الكماليات فى إحدى مدن الوجه البحرى وعمرى ٤٣ سنة، وأنا متوسط القامة مثقف ومرح إلى حد ما ولدى سيارة حديثة صغيرة تيسر لى أمورى وقد رزقنى الله طفلين أكبرهما فى الثانية عشرة من عمره والأصغر فى الحادية عشرة.

وبغير الدخول فى التفاصيل فلقد اضطررت إلى طلاق زوجتى للمرة الثالثة أخيرًا وبعد محاولات مستميتة من جانبى لإثنائها عن طلب الطلاق حفاظا على ولدينا وبيتنا وسنوات العشرة والكفاح والحب التى ربطت بيننا، لكن محاولاتى كلها ذهبت أدراج الرياح، كما فشلت أيضا محاولات أهلها لردها إلى الصواب فكان الطلاق. والحق أنى لا أعفى نفسى من المسئولية عن هذا الطلاق فلا شك أنها سامحها الله وسامحنا أيضا قد تحملت الكثير من أخطائى ومتاعبى لكنى كنت آمل أن يتغلب نداء العقل على الانفعال فلم يحدث ذلك للأسف. والمشكلة الآن يا سيدى تتلخص فى أن طبيعة عملى تستوجب وجودى فى مدينة بالوجه القبلى لمدة ١٠ أيام كل شهر هى فترة انعقاد جلسات المحكمة، أكون خلالها بعيدا عن ولدى اللذين

يدرسان فى مدارس مدينتى بالوجه البحرى، وليس لى من الأقارب والأهل من يمكن أن يقوم على رغباتهما فى غيبتى فضلا عن أنه حتى فى فترات وجودى معهما فإنى قد أحتاج إلى من يرعانى أكثر منهما، فأنا لا أعرف الطهى ولا أعرف شيئا عن الشئون المنزلية ولا دراية لى بها، وأمى سيدة مسنة وتقيم فى مدينة بعيدة وظروفها تمنعها من الانتقال للإقامة معى.. وإخوتى هاجروا جميعًا للخارج منذ سنوات وأنا وحيد مع طفلين فى حاجة للرعاية والحنان وكان الحل الوحيد هو الزواج وقد نصحنى بذلك أيضا أهل زوجتى أنفسهم بعد أن أعيتهم الحيل فى عدول ابنتهم عن الطلاق.

فتقدمت لإحدى قريباتى التى لمست منها ميلا إلىَّ فإذا بها ترفضنى لأن لدىَّ طفلين فقل لى بالله عليك.. ماذا يفعل من كان فى مثل ظروفى.. هل أعيش عمرى كله أدفع ثمن تجربه زواج فاشلة؟! ثم لماذا يعتبر وجود طفلين سببا مانعا لى من الزواج بمن تلائمنى؟ أليس من حق هذين الطفلين أن يجدا الرعاية من أبيهما فى وجود زوجة طيبة؟ إن تجربتى الفاشلة فى الزواج تقف أمام تحقيق رغبتى فى زواج متكافئ يضمن لى الاستمرار ولابنىَّ حقهما الطبيعى فى الرعاية والحنان مع أنى يا سيدى أختلف فى الرأى مع كل من ترى ذلك.. فإن تجربتى الفاشلة هى فى رأيى نقطة قوة فى موقفى تحسب لى لا علىَّ. ولسبب بسيط جدا هو أن مثلى إذا تزوج فإن فشله يخلق لديه رغبة أكيدة فى ألاَّ يفشل مرة

أخرى، وليس فى العمر بقية لاضيعها فى تجارب فاشلة.. وليس من العدل أن أعرض ولدى لهزات نفسية جديدة بعد كل ما حدث.. فلماذا تنفر السيدات من المطلق وله أولاد.. وتعتبرنه مشروع زواج محكومًا عليه بالفشل مقدما؟ ولماذا هذا الحكم الجائز مسبقا؟.

حياته الجديدة وأكثر رغبة فى تجنب الفشل للمرة الثانية، لأنه ذاق مرارة الفشل من قبل وخبر قسوته. وصدق من قال إننا نحتاج أحيانا إلى أن نعيش حياتنا أكثر من مرة، لكى مستوعب أخطاءنا ونتعلم من تجاربنا.. وكثيرا ما نقول لأنفسنا لو عادت بنا الأيام إلى الوراء لما فعلنا كذا ولما أقدمنا على كذا. مع أننا حين فعلنا ذلك كنا نرى أنفسنا على حق لأيأتيه الباطل من يمينه أو يساره، وهذا هو معنى التجربة ودرس الحياة.. ورسالتك يا صديقى تقطر ألما وأسى وندما لتطور الأمور إلى حد الطلاق البائن وضياع البيت وسنوات العشرة والكفاح. وفى ذلك ما يؤكد أن لديك حنينا دافقا للاستقرار كما أن سطور رسالتك لم تظلم مطلقتك ولم تحملهاوحدها مسئولية الفشل، وفى هذا إنصاف لها من نفسك، وقليلون هم من ينصفون الآخرين من أنفسهم، إن كل إنسان معرض للفشل ولكنه ليس نهاية الحياة، والطلاق محنة للرجل كما هو

محنة للمرأة.. فلماذا نتصور أن هناك من يستعذبه ويهواه، لكنى أدعوك إلى أن تتجنب الأخطاء التى يقع فيها بعض من يتعرضون لتجربة الفشل فى الزواج وفى ظروف الألام النفسية التى تصحبها.. فبعض الرجال يقعون تحت تأثير رغبة متسلطة لديهم للزواج.. من "أفضل" ممن غرقت معها سفينة الزواج الأول كأنهم يريدون أن يثبتوا لها أنهم يستحقون من هى أجمل وأصغر وأرقى منها! وهذا خطأ فى التفكير أرجو ألا تقع فيه لأنه يدفع المطلق إلى التقدم لمن لا تناسبه فيصدم بالرفض.. وتتضاعف محنته.. والعاقل من يعى تماما وهو من يسعى إلى من تلائمه فيقبلها بظروفها الخاصة كما تقبله هى بظروفه الخاصة وأولها وجود الطفلين.. فلماذا مثلا يرفض "المطلق ومعه أولاد.. مطلقة ومعها أولاد أو أرملة ومعها أولاد ولا يتقدم غالبا إلا إلى بكر صغيرة السن؟ ولماذا يطلب أما لأولاده ويرفض هو أن يكون أبا لأولادها؟ ولماذا يطالب الآخرين بالتنازل عن بعض الاعتبارات ويرفض هو التنازل عن اعتبارات مماثلة؟ إننى لا أعنى أنك قد فعلت ذلك لكنى أرغب فقط فى أن تساعدك هذه الكلمات المتواضعة فى أيضاح بعض جوانب الطريق إلى حياة جديدة.

أما رعاية طفليك خلال فترة غيابك فى مقر عملك فهى ليست معضلة فأمهما على قيد خطوات منهما والحمد الله، وسوف تسعد بأداء هذه المهمة إلى أن يوفقك الله إلى شريكة حياة، وأظن أنك لا تقبل أن

تحرمها من حقها فى ذلك.. فأنت رجل عدالة أولا وأخيرا ومثلك من يرعى العدل والرحمة فى تعامله معها بعد الانفصال فهما جديران بك وأنت جدير بهما.. ولسوف يوفقك الله إلى حياة جديدة موفقة بقدر ما ترعاها فى علاقة طفليك بأمهما.. مع تمنياتى لك بالسعادة والتوفيق.



سيدى.. أكتب إليك رسالتى هذه بعد أن نفد صبرى، ولم يعد أمامنا حل سواها عسى أن تصل رسالتنا إلى من بيدهم إنصافنا فنحن أسرة مكافحة.. مكونة من أب يحمل شهادة عالمية ويعمل موظفا فى الحكومة وابنتين وولد. أما أنا كبرى إخوتى فأنا طالبة فى نهائى الطب ومتفوقة فى دراستى والحمد لله وأنجح بتقديرات عالية..

وأختى طالبة فى كلية عملية ومتفوقة جدا فى دراستها وتنجح بتقدير جيد جدا كل سنة. وأما شقيقى فهو طالب فى المدارس ومتفوق جدا فى دراسته، وجميعنا حصلنا على شهادات تفوق خلال دراستنا وعلى خطابات شكر لتفوقنا واجتهادنا فى الدراسة.. ولقد كانت حياتنا تمضى هادئة بين رعاية الأب لنا وبين حرصنا على دروسنا.. وبين جهودنا لتنظيم حياتنا فى حدود إمكانياتنا والحمد لله فلسنا نشكو شيئا من هذه الناحية..

فبالتدبير والتنظيم واستعداد كل منا للتضحية من أجل الآخر.. كانت تمضى بغير صعوبة كبيرة! يعنى يوم عسل.. ويوم بصل كما يقولون، لكن القافلة تسير ونحن راضون عن حياتنا وعن أنفسنا وعن تفوقنا.. ونتطلع دائما إلى غد أفضل...

إلى جانب أننا جميعا نحب بعضنا البعض ونحترم بعضنا البعض.. نحب جيراننا ونحترمهم ويبادلنا جيراننا نفس المشاعر، ونلقى الود والاحترام ممن نتعامل معهم فى حياتنا اليومية من اللبَّان.. إلى بائع الصحف.. إلى البقال إلخ.. والحق أن تفوقنا فى الدراسة قد أكسبنا "مكانة" نعتزبها ونشكر الله عليها لدى أصدقائنا وجيراننا ولكن!.. وآه من لكن هذه فلقد شاء حظنا العاثر أن يسكن فوقنا جيران جدد اشتروا الشقة العلوية بمبلغ كبير من المال لأنها شقة واسعة والعمارة التى نقيم فيها بايجار قديم عمارة جيدة وموقعها ممتاز والبيت كله هادئ وجميل. لكن منذ انتقال هؤلاء السكان الجدد إلى عمارتنا.. خرج الهدوء من بيتنا.. ولم يعد مرة أخرى حتى الآن! فجيراننا يا سيدى من أثرياء الانفتاح الذين يملكون الملايين – ونحن لا نحسدهم والله العظيم – بل نرجو لهم ملايين أخرى على ملايينهم.. لكننا فقط ندعو الله أن يكف عنا أذاهم وإزعاجهم المستمر لنا.. فهم يا سيدى يعيشون الحياة بطريقة مختلفة تماما عن ما عرفناه وألفناه. فهم يعيشون حياتهم "بصوت عال" دائما زوارهم وأقاربهم بالعشرات وعزوماتهم لا تنتهى وأصواتهم عالية دائما وضحكاتهم عالية دائما ومشاجرات أولادهم عالية باستمرار.. ولعب الصغار منهم بأصوات تزلزل الجيران.. وليلهم نهار ونهارهم ليل.. فلا تعرف متى ينامون – ولا متى يذاكر أبناؤهم الصغار ولا كيف ينجحون فى المدارس.. ففى عز الليل نسمع

ضجيج لعب الصغار بالألعاب الإليكترونية!.. وألعاب التليفزيون! ونسمح صخب وضجيج الكبار..

وهم وزوارهم يتحدثون ويتبادلون الأحاديث السمجة والضحكات.. وكأنهم يجلسون معنا فى صالون شقتنا وليسوا فى مسكن آخر.. وهؤلاء القوم يا سيدى فيما يبدو لا يعرفون الأسرار.. فكل شئون حياتهم تطرح فى الكلام علناِ وبصوت عال.. وبلا خجل.. ونحن نستطيع أن نقول لك لماذا غضبت" فلانه من زوجها "فلان" وتركت له بيت الزوجية وهما من أقاربهم.. لأننا نسمح رُغْمًا عنا أحاديثهم بالكامل.. وأستطيع أن أقول لك كل أخبار بور سعيد التى يتبادلونها.. وماذا اشترى فلان.. وكم "بلاطة" دفع فيها.. ولا أعرف معنى الكلمة "لكن لابد" أنها مبلغ من المال فكل شىء فى حياتهم صوته عال! والتليفزيون الذى نراه ونسمعه بغير أن يحس بنا أحد "يدوى" فى شقتهم من بدء الإرسال حتى نهايته.. ثم تبدأ المسرحيات الكوميدية بالفيديو حتى الفجر والستريو لديهم يهز الجدران طوال النهار بالموسيقى الصاخبة وبالأغانى الشعبية السمجة..

أما سياراتهم الفارهة.. فلا تعرف من أين جاءوا بهذه السرينة التى توقظ الشارع بأكمله فى عز الليل.. إذا أطلقوها.. أو أطلقها زوارهم..

ولا أعرف أيضا من أين جاءوا بهذا الستريو الضخم المركب فى السيارة والذى يحولها إلى محطة للموسيقى الصاخبة تطلق عواءها فى كل وقت. ولا مانع بعد كل ذلك من تغيير أماكن قطع الأثاث فى عز الليل.. والمعترض يلجأ للقضاء.. والمهم هو راحتهم وليس مهما أى شئ آخر!.. فإذا شكونا من الإزعاج .. وناشدناهم وتوسلنا لهم وبالدموع أن يدعو لنا فرصة ٣ ساعات فقط كل يوم لكى نذاكر فيها دروسنا نهرونا.. وقالوا لنا إننا نحسدهم على ما هم فيه! وإذا وسطنا الجيران بيننا وبينهم قالوا لهم.. يا ناس يا شر بطلوا قر!! وإذا شكونا للشرطة هذا الإزعاج المستمر واصلوا أزعاجهم لنا بلا مبالاة.. بل واستلمونا بعدها بالمضايقات والتهديدات وإلقاء القاذورات من "شرفاتهم العالمية على ملابسنا المغسولة على الحبال"!

وقد أصبحنا نذاكر دروسنا فى بيوت الأقارب.. أو نستذكرها تحت ضغط عصبى لا يطاق فى بيتنا.. ولا نستطيع أن نركز على ما نقرأه لأكثر من دقائق ثم ينفجر صوت جديد قادم من جيراننا الجدد! وكلما شكا جار آخر منهم بطشوا به وصبوا عليه مضايقاتهم ووجد نفسه بلا حماية فيضطر للسكوت. لقد أقسمت شقيقتى أن تغير مجرى حياتها وأن تلتحق بعد تخرجها فى الكلية العملية بأى عمل فى وزارة الداخلية لكى تستطيع أن تحمى نفسها، وكذلك أقسمت أنا وهو ألا نتزوج إلا من ضابط شرطة أو وكيل نيابة لكى نحمى أنفسنا عندما نتعرض

لأمثال هؤلاء الناس! وكذلك أقسم أخى أن يحول مجرى حياته وأن يلتحق بكلية الشرطة لنفس الغرض!.

إن أعصابنا لم تعد تتحمل المزيد من هذا العذاب.. وخارت قوانا وأصبحنا ننام بالحبوب المنومة، ونذاكر بالضغط على أعصابنا ونعيش فى هوان وخوف من هؤلاء الجيران.. فهل أصبح مجتمعنا هكذا! وهل الأخلاق الطيبة والتدين والمثالية والتمسك بالمبادئ والتفوق فى الدراسة لا تساوى أى شئ أمام "جبروت" الملايين؟ أننى أتوسل إليك أن تنشر هذه الرسالة لكى يقرأها المسئولون عن النظام ليفصلوا فيها فنحن لا نطلب سوى أن يدعونا نذاكر.. وأن يكفوا عنا أذاهم فهل هذا كثير؟.. كذلك فأننى أتوسل إليك يا "والدى" أن تمزق خطابى هذا فور وصوله لك لأننى أخاف أن يطلبه منك "هؤلاء الناس" ويرفعوا علينا القضايا لأن لهم سطوة كبيرة!!

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

هذه هى الرسالة التى تلقيتها من طالبة فى نهائى طب بإحدى الجامعات وقد نشرتها رغم ما قد يبدو فى ظاهرها من أنها تعرض لمشكلة صغيرة.. لأنى أرى فيها صورة لمشكلة أكبر وأخطر من مشكلات مجتمعنا. فهى ليست مشكلة "إزعاج" يمكن أن يسويها محضر فى قسم شرطة.. لكنها مشكلة أسلوب حياة لدى فئات عريضة أصبح يهدد العلاقات الاجتماعية والقيم والمثل العليا بخطر عظيم.. إنها مشكلة "أنا وبعدى الطوفان" التى تحكم تصرفات كثيرين الآن فى مقدمتهم معظم أبناء هذه الفئة الجديدة.. وهؤلاء بالذات يعيشون الحياة بأسلوب "زاعق" يعلن عن وجودهم بطريقة استفزازية ومقززة فى كل لحظة وفى أى مكان يوجدون فيه.. ولا بأس فى ذلك رغم فجاجته إذا كان لا يمثل اعتداء على حريات الآخرين وراحتهم وحقوقهم ومن هنا يدخل دائرة الجريمة الجنائية والاجتماعية أيضا، ولا أتصور أن سلوكيات أفراد هذه الفئة سوف تتغير إلى الأفضل خلال وقت قصير، فالإنجليز يقولون يا آنستى فى أمثالهم "إنك تحتاج إلى ثلاثة أجيال لكى يصنع المال من إنسان ما جنتلمانا" ! أى إنسانا

متحضرا بالسلوك والقيم.. لا بالمال والملابس و"نواعير" السيارات ثم إن هذه الطبقة فى تصورى ليست لها مثل عليا تحتذيها وتهذب من سلوكها، وليست لها أيضا قدوة تقلدها وتنال عنها سلوكياتها المتحضرة لأنها أصلا طبقة شيطانية بلا جذور، وقد تولد لدى معظم أبنائها للأسف بسبب نجاحهم فى صنع ثروات ضخمة فى خلال عدد محدود من السنوات – اعتقاد عجيب بأنه ليس فى الوجود كله من هو أذكى منهم ولا أحسن ولا أفضل، وبالتالى فإن ما يصنعونه هو الصواب دائما والآخرون على خطأ، وهذا غباء وعمى للقلب والبصيرة!.

وهم بتصرفاتهم كأنهم يسائلون أنفسهم: ماذا صنع الأثرياء القدامى بنوا المصانع؟ ظز! كونوا ثرواتهم فى ٣٠ و٤٠ عاما؟ هذه خيبة منهم! أنشأوا الجامعة المصرية القديمة وتبرعوا للمدارس والمعاهد ورعوا الثقافة والفنون والعلوم.. قطيعة!.

فلا أمل إذن فى أن تنقل هذه الطبقة الجديدة السلوكيات السليمة والمثل والقيم عن الطبقة القديمة.. ولا أمل أيضا فى أن تنقل عن طبقة المثقفين و "الانتلجنسيا" سلوكياتها وأن تقلدها.. فهم يكنون لها إحساسا غريبا هو مزيج من الشعور بالنقص تجاهها والشعور بالتعالى الكاذب عليها.. لعدم إيمانهم بجدوى العلم والشهادات إلخ، فإذا

أضيف لذلك ما تكنه الطبقة المثقفة أصلا لأفراد هذه الفئة من احتقار باطنى عظيم لها! فإن الأمل يبدو ضئيلا للغاية فى أن تتفاعل هذه الطبقة الجديدة معهم، وفى أن تنقل عنهم فلا يصبح باقيا فى النهاية سوى المثل والسلوكيات المكتسبة من عالم الشطارة والعالم السفلى وهذه كارثة أخرى.. لأنها تتعامل مع الآخرين بهذا السلوكيات وتزيد من صعوبات حياتهم بها.

والحق أن كل ذلك لا يعنينى بقدر ما تعنينى هذه النتيجة المفزعة التى توصلت إليها كاتبة الرسالة وشقيقاتها بعد أول مواجهة مع عينة من هذه الشريحة الاجتماعية.. وهى أن "الحل" الوحيد لكل تحميا نفسيهما من إزعاج هذه الشريحة لحياتها هو أن تنتسبا بشكل أو بأخر إلى سلطة ما ممثلة فى الزواج من ضابط شرطة أو وكيل نيابة!! إن هذه هى كارثة أشد وأفظع من كارثة سلوكيات غير متحضرة لبعض الأفراد، ففى ذلك تسليم "مرير" بأن العلم والتفوق والأخلاق الطيبة والقيم لا تكفى كلها للحياة فى أمان، وهذا هو ما يخيف أكثر من أى شئ أخر.. فهل لدى المهتمين بدراسة أحوال مجتمعنا تفسير لذلك.

أما رسالتك يا آنستى فلن أحرقها وإنما سأحتفظ بها كشهادة عصرية على مشكلة جديدة من مشاكل حياتنا ولا تخشى شيئا فلن أسلمها لأحد ولو كان من أصحاب البلايين لا الملايين إن شاء الله!.

بعض الرسائل اقف أمامها عاجزا.. لكنى قد أنشر بعضها تسجيلا لواقع أليم أكبر من قدرتى.. وقد أنشرها استجابة لرجاء أصحابها.. وقد أنشرها أخيرا لرضاء لضميرى وإلقاء تبعتها المرهقة عن كاهلى الذى لا يتحملها وحده.. ومن هذا النوع من الرسائل.. هذه الرسالة.

أكتب إليك هذه الرسالة.. وأنا أعلم أن الأمل الذى أجرى وراءه هو فى حكم المستحيل.. لكنى أكتب اليك استجابة لرجاء أمى التى تلح على أن أكتب لعلك تجد لنا مخرجا مما نعانيه. وها أنا أكتب.. وأمى تجلس بجوارى.. وإلى جوارها إخوتى البنات الأربع.. وإلى جوارهن شقيقاى.. ولهما قصة سأرويها بعد حين! فنحن يا سيدى أسرة مصرية سعيدة... لكننا نشكو من بعض المتاعب.. كغيرنا من الناس! فأبى عامل ليس له مورد سوى راتبه، وراتبه هو موردنا الوحيد للطعام والشراب والأدوية ومصاريف المدارس.. وأنا كبرى إخوتى فى العشرين من عمرى وقد حصلت على دبلوم التجارة هذا العام ولم أجد عملا بعد، ونحن نعيش فى غرفة و"خزنة"، وهو سكن ضيق للغاية فضلا عن أنه مشترك ولا داعى لأن أروى لك ما نعانيه من مشاكل وخلافات.. فأنت تعرف ما تسببه

المشاركة فى السكن من مشاكل حول أشياء تافهة! والحجرة التى نعيش فيها ضيقة وهى عبارة عن حجرة معيشة ومطبخ فى نفس الوقت، وإخوتى جميعا وهم ستة غيرى فى مراحل التعليم المختلفة ويعانون صعوبة كبيرة فى مذاكرة دروسهم فالحجرة لا تكاد تسعنا ونحن جلوس.. فكيف تتسع لمن يذاكرون؟ وحياتنا يا سيدى مليئة بالمشاكل والعذاب.. وليسامحنى الله لو قلت لك إننا لم نر من الدنيا منذ ولدنا سوى العناء والتعب والحرمان والألم فى كل مراحل حياتنا فقد جاء أخى إلى الدنيا وهو يعانى من وجود مياه زرقاء فى عينيه وقد فقد بسببها بعد فترة من الوقت بصره نهائيا بعد أن "دخنا" به على العيادات الخارجية بالمستشفيات وعلى أطباء الأحياء الشعبية لكن إرادة الله شاءت أن يفقد بصره، وهو الآن عمره ١٢ سنة يمضى أيامه سجينا فى هذه الحجرة الضيقة ومحروما من كل شىء يمارسه الأطفال فى سنه، وهو أيضا لا يعرف اللعب لأن الحجرة لا تتسع لألعاب الأطفال ويمضى الأيام جالسا يجتر حزنه وضيقه واكتئابه، ولا نملك له عونا وقد زاد الأمر سوءا أن ولد شقيقه الأصغر وعمره الآن ٣ سنوات بنفس المرض، لكن حظه كان أفضل من شقيقه الأكبر فلقد أجرينا له جراحة عند أخصائى دفعنا فيها كل ما نملك ونجحت العلمية والحمد لله وهو الآن "ينظر" بسيطا جدا، لكن الحمد الله على

كل شيء فهو أحسن حالا من شقيقه.. وكما يقولون "الطشاش ولا العمى!"!

هذه هي قصتنا.. وقد كتبتها بعد أن ضاعت ثقتي في كل شيء حولي... ونحن نعيش حياتنا بالطول وبالعرض إلى أن يجيء فجر الله ويتحقق الحلم الذي يراودنا منذ سنوات طويلة وهو أن نجد المسكن الملائم لهذه الأسرة السعيدة... بعد ما عانت الحرمان والشظف.. ونقص الراحة حتى في ساعات النوم ولكي نستريح من الخلافات والمشاكل بسبب السكن المشترك!

التوقيع: م.أ

هذه هى الرسالة التى تلقيتها.. ولا أعرف على وجه التحديد ماذا أستطيع أن أقول لكاتبتها.. فما ترويه الرسالة واقع يعيشه الكثيرون وينبغى أن نركز عليه دائما وألا تشغلنا عنه الصور الملونة على شاشات التليفزيون.. فأى تقدم نحققه فى بلادنا لن يكون حقيقيا مالم ينعكس على حياة هؤلاء البؤساء.. وما لم تتوافر لهم أساسيات الحياة، وأولها المسكن الملائم. إن هذه هى مسئوليتنا المشتركة جميعا. لذلك فإنى لن أقول لك يا آنستى: صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة! لكنى سأقول لك أن المسكن من حقوق الإنسان الأساسية فلمن يكون المسكن الشعبى إذن أن لم يكن لأمثالكم! وإذا كنت لا ألوم والدك لفشله فى الحصول على مسكن شعبى حتى الآن مع علمى أن المشكلة فوق طاقتة فأنى قد ألومه - وأستغفر الله لذلك - فى أنه أيضا أسهم فى تعقيد حياتكم، حين لم يراع "ظروف المكان" فى حجم عدد أسرته، فأتمكم سبعا من البنات والبنين فى غرفة و "خزنة" كما تقولين! ولعله غفر الله له كان يسعى وراء الولد فرزقه الله من البنات خمسا قبل أن يجئ الولد، وحين جاء كان مأساة وحده.. أعانه الله على ما يعانيه من

الظلام والحزن والاكتئاب وعسى الله أن يفرج كربه... وأن يعوضه عما حرمه منه ولعله يكرر لنا قصة فتى شهير كان يجلس نفس جلسته فى غرفة ضيقة يجتر حزنه واكتئابه.. فإذا به يتفجر موهبة وعلما ويدوى اسمه بين العاملين.. على أية حال.. فإنى قد استطيع أن أساعدك فى ايجاد عمل لك، فلقد نشرت من قبل مشكلة "موظفة قطاع خاص" وتفضل اقتصادى كبير يرأس شركة معروفة بالاتصال بى عارضا حل مشكلتها وتشغيلها.. ثم تبين لى عند الاتصال بكاتبة الرسالة أنها تعيش فى مدينة المنصورة ولا تستطيع أن تعمل خارجها" فإذا كانت استجابة هذا الاقتصادى الكبير مازالت قائمة وأظنها كذلك لأنها استجابة إنسانية أساسا. فإنى سوف أعرض عليه مشكلتك ولعله يفتح لك بابا من أبواب الأمل، أما مشكلة السكن.. فلا أملك لها حلا إلا إذا شاء الله.. والله المستعان فى كل الأمور.

للمرة الثانية أجدنى أكتب إليك هذه الرسالة.. كانت المرة الأولى منذ ٥ شهور.. وكنت أكتب إليك أشكو لك حالى مع زوج كان مقاولاً ثريًا لكنه بدد معظم ثروته فى الإنفاق والخمر والنساء، وأنه يعيش السنوات الأخيرة على بيع ما تبقى لنا من ممتلكات يوما بيوم. وكيف أنى واجهت الحياة بعد أن قلبت لى ظهر المجن، حتى أنى عرفت محلات الملابس المستعملة لى ولابنتىَّ الطالبتين بالجامعة.. وأن أكثر ما يغيظنى هو أن ينادينى الباعة فى الحى الراقى الذى أقيم فيه "يا هانم".. فى نفس الوقت الذى أعانى فيه الفاقة حيث لم يبق لى من العز القديم سوى المظهر المحترم، ولقد تفضلت بنشر رسالتى بعنوان "امرأة محترمة" وأغدقت على من كلامك ما أردت به تخفيف آلامى وعذابى مما ساذكره لك دائما بالعرفان، وقد تكرم بعض قراء بابك وارسلوا اليك عدة استجابات لإيجاد عمل يتلاءم مع خبرة زوجى فى أعمال المقاولات وقمت مشكورا بتحويلها إلى، وأذكر أنى اتصلت بك بعدها تليفونيا لأشكرك وأشكر قراءك وأقول لك معتذرة إنه "لا فائدة" فيما يبدو فقد رفض زوجى هذه العروض وحمل بعض أدوات صيد السمك التى تبقت لنا من الحياة الغابرة، وغادر القاهرة فى رحلة صيد إلى البحر الأحمر.. ونحن لا

الأخيرة من حيث الصعوبة والمعاناة.. لكن الحياة رغم ذلك ازدادت قسوة وصعوبة. إذ لم يعد لنا أى مورد بعد أن كان آخر ما نملكه هو النقود السائلة التى حملها معه فى رحلته الأخيرة، وكانت من حصيلة بيع آخر أدوات العمل التى تبقت لديه من عمله كمقاول... ولقد فكرت فى أن أقوم بعمل يكفل لى استمرار الحياة المتقشفة التى نعيشها الآن والتى لم يتبق من آثار الحياة فيها سوى المسكن رخيص الإيجار فى حى راق... لذلك فقد فكرت فى أن أبحث لنفسى عن عمل. لكن الصعوبة هى أين هو العمل الذى تجده بسهولة سيدة فى منتصف العمر لا تحمل سوى شهادة الثانوية العامة منذ أكثر من عشرين سنة.. وليست لديها سوى بعض الخبرة بأعمال التمريض من طول ما مرضت زوجى خلال فترات حياته المضطربة.. أو بعض الخبرة بأعمال

المدارس الإدارية من نشاطى السابق فى المشاركة فى أعمال النشاط المدرسى حين كنت من سيدات المجتمع.

فهل ترى أن هناك لمثلى فرصة عادلة فى أن تجد عملا يدفع عنها شر الحاجة.



ولكاتبة هذه الرسالة أقول

هذه هى الرسالة التى تلقيتها من إحدى قارئات البريد التى سبق أن نشرت لها رسالة سابقة فى هذا المكان من قبل.. ولقد تخيلت حين بدأت قراءة رسالتها أنها تكتب لى لتنقل إلىَّ خبرا عن حل مشكلتها بعد هذه الشهور الخمسة، لكننى وجدت رسالتها الأخيرة تحمل فصلاً جديدًا أكثر درامية من قصتها الغريبة..

على أية حال فلقد جرى ما جرى والزمن أعظم المؤلفين كما يقولون!

فلتنتظرى إذن يا سيدتى للمستقبل وعفا الله عما سلف بكل آلامه وعذاباته، والمستقبل الآن هو أمر أسرتك الصغيرة التى أصبحت المسئولة عنها وحدك. ولقد أحسنت حين فكرت فى العمل لتهيئ لابنتيك إمكانات الحياة ومواصلة التعليم.. وأتصور أنك سوف تجدين بإذن الله العمل الذى يتلاءم مع خبرتك بالحياة..

وهى ليست قليلة بأى حال من الأحوال.. فإذا هيأ الله لك هذا العمل عن طريق بريد الأهرام وأرجو أن يتحقق ذلك قريبا،، فلسوف

أكتب إليك على عنوانك لأبشرك به وسوف، يكون ذلك بإذن الله بداية لحياة جديدة ربما لا تعرف رغد الحياة السابقة لكنها ستكون أكثر أمانا وسلاما نفسيا بالتأكيد حين تشعرين بكرامة أن يكسب الإنسان قوته بجهده وعمله بدلا من أن يعيش خائفا من المجهول.. ومن المستقبل كل يوم كما كنت تعيشين خلال السنوات الأخيرة تلك الحياة المضطربة التى جاءت رحلة الصيد الدرامية لتصنع فصلها الأخير!.. فقط لا تفقدى يا سيدتى ثقتلك فى الله.. ولا فى نفسك.. ولا فى بشر، فلقد كنت امرأة محترمة، وأنت تعانين من حياتك المتقشفة مع زوجك الراحل غفر الله له. وازددت الآن احتراماً وأنت تفكرين جادة فى النزول إلى الحياة العملية لتوفرى لابنتيك الحياة الكريمة الشريفة وسوف تنجحين فى ذلك.. وسيأتى يوم تصبح فيه كل هذه الآلام مجرد ذكرى لأيام صعبة مررت بها وتجاوزتها بصلابتك إلى المستقبل الأفضل بإذن الله مع تمنياتى لك بالتوفيق!



واحة الكتب

أكتب إليك هذه الرسالة عقب انتهائى مباشرة من قراءة بريد الجمعة.. فقد شجعنى ما قرأته من هموم الآخرين أن أشكو لك همي:

مشكلتى يا سيدى أننى رجل فى عنفوان صحتى وشبابى.. لكنى رجل بلا دور ولا فائدة فى هذا المجتمع.. فلقد خدمت بلادى سنوات طويلة ثم شاركت فى حرب أكتوبر وأصبت فيها إصابة جزئية أدت إلى عدم لياقتى للاستمرار فى الخدمة، فأحلت للتقاعد بعدها وأنا شاب فى التاسعة والثلاثين متمتع بكامل صحتى وقواى. وأصبحت فجأة من أصحاب المعاشات أتقاضى معاشا محترما للغاية.. لكنى بلا عمل! وأجد ما أنفقه على نفسى وأسرتى لكنى بلا دور ولا حيثية!.. وقد يكون ذلك أمرا طبيعيا فى مثل ظروفى لكن غير الطبيعى هو ما حدث لى فى إطار أسرتى وفى إطار مجتمعى العائلى الصغير.. فلقد أحسست فجأة بعد خروجى من الخدمة بإحساس مرير بأننى فقدت شيئا جوهريا لا يعوض عندما خلعت بدلتى الرسمية.. وارتديت القميص والبنطلون! وأحسست أنى قد فقدت "أهميتي" لدى بعض الأشخاص أو بالذات لدى شخص معين بعد انتهاء دورى فى الحياة العملية... أو بعد

بسعادة واستمتاع وبصوت عال واحس انا بدش بارد ينزل فوق رأسى.. وتحملته مرات عديدة وكدت فى مرات أخرى أن "أمزقه" ثم أتراجع وأعود إلى صوابى من أجل زوجتى التى تستحق كل احترام وتقدير لأخلاقها الرفيعة وإخلاصها.. والكارثة أنى لا أعرف كيف أتخلص من مضايقاته.. فهو حين يفعل شيئا من هذا النوع أغضب لكرامتى وأمتنع عن زيارته وأقاطعه وتستجيب زوجتى لرغبتى كارهة مراعاة لمشاعرى ولتألمها الحالى، لكنه لا يدعنا فى حالنا فبعد فترة يأتى لزيارتنا طالبا منا الصفح والغفران، فيرق له قلبى وقلب زوجتى التى تسارع إلى الصفح عنه قائلة لي: اعذرنى ليس لى إلا أبى.. هى معذورة فعلا لأن أمها متوفاة وباقى أشقائها هاجروا للخارج من "أفعاله" وهو يفرض علينا "بالعافية" صلحه سواء بالإقناع أو بالضغط والتشهير ويسبب لنا حالة من الإرباك النفسى، والأسرى

نحن فى غنى عنها إذ يستعدى علينا الأسرة حتى إخوتى الذين أبدوا أمامهم ساعتها قاسيا لأنى أقاطع الرجل بلا سبب ظاهر رغم حرصه على أن يصل ما بينى وبينه فى حين أبدو أنا "مفتريا" لا أريد صداقته! وطبعا هم معذورون لأنى لا أقول لأحد ماذا يصنع معى لأنى لا أريد أن يعرف أحد ما يحدث منه معى حرصا على كرامتى.

والحق أنى لم أكن أريد أن أصدع رأسك بهذه الهموم التى قد تبدو صغيرة.. لكنها حالة أعيشها بالفعل وأتعذب بها خصوصا أن كل ذلك يحدث وأنا أواجه الحياة بلا عمل فى حين تعمل زوجتى وتخرج لعملها كل يوم.. وأبقى أنا بلا عمل، فماذا أفعل هل أعد البيت أو اكتفى بتوصيل الأولاد للمدرسة ولى ثلاث طفلات كبراهن فى السنة الثانية الابتدائية وصغراهن عمرها سنة ونصف السنة ومازالت ترضع من أمها! لقد حاولت أن أزيد من امكانياتى فحصلت على بكالوريوس التجارة سنة ١٩٨٠ فى المحاسبة وعلى نفس البكالوريوس فى إدارة الأعمال فى السنة التالية لها.. وحاولت جاهدا البحث عن عمل ملائم لى.. فى مجال الوظائف فكنت أواجه كل مرة بالاعتذار.. من أصحاب الأعمال لأنهم يتحرجون من تشغيلى وإصدار الأوامر لى بالرغم من أنى أرغب فى ذلك لأن العمل عبادة ولأنى كبرت خلال هذه الفترة القصيرة حوالى عشرين سنة. وأبيض شعرى وتوترت أعصابى وفكرت فى العمل بالتجارة، لكنى وجدتها

تحتاج إلى إمكانيات وخبرة ليست لى.. وأنا الآن أفكر كل يوم كيف سأمضى اليوم التالى.. وأين أجد مكانا أمينا أختفى فيه كل يوم ٦ ساعات من الصباح حتى الظهر ثم أعود إلى البيت كأنى عائد من العمل، وأنا أدعى كذبا أمام الجيران وأمام من يسألنى أو يسأل زوجتى، إننى أعمل محاسبا بعد تركى الخدمة، قد حاولت أن أعمل كذلك بالفعل وطفت بأماكن عديدة باحثا عن عمل ملائم بلا فائدة، وفى إحدى المرات وفقت فى العثور على عمل مع أحد أصحاب الأعمال الذين توسعت أعمالهم فى الفترة الأخيرة، وكان الرجل يريد مديرا لمكتبه وقبلت العمل معه مديرا لمكتبه أسير وراءه كما يريد حاملا حقيبة بها النقود والشيكات التى يتعامل بها، لكن كان يقدمنى للناس ولأصدقائه من المعلمين والتجار برتبتى السابقة قائلا: سكرتيري! ولم أستطع أن أتحمل ذلك كثيرا وتركت العمل معه وعدت للفراغ والضيق واليأس.. ولعلك ستعجب لو عرفت أن صهرى لم يرحمنى فى هذه الفترة أيضا! ولم يعفنى من لسانه السليط وانتهزها فرصة ليقول بنفس الطريقة إياها أمامى.. "حتى دى مافلحتش فيها يا بلبل؟ أمال حتلفح فى إيه؟" ولا أريد أن أكرر ما قلته من قبل فقد تكرر نفس السيناريو وكظمت غضبى وقاطعته واستجابت زوجتى الطيبة.. لكنه أعاد نفس الضغط للصلح ثم التشهير. ثم الصلح تمهيدا للعودة إلى الإساءة إلى من جديد فى أقرب فرصة.. فهو يجد متعة كبيرة فى تعذيبى

بلسانه السليط.. وأنا الآن معذب فهل أجد لديك حلا لمشكلتى مع الفراغ والإحباط.. ومع هذا الصهر المشاغب.. إننى أريد مشورتك فماذا تقولى لي؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول

وأجيب عن تساؤل كاتب هذه الرسالة: أقول لك يا سيدى على الفور ما قاله شكسبير من أن الدنيا مسرح كبير، وأن مسرحها يشهد أحيانا روايات تراجيدية.. وأحيانا روايات كوميدية.. وأحيانا أخرى روايات تراجيدية كوميدية، كما أقول لك إن قصتك من النوع الأخير بكل أسف فهى صورة غريبة للحياة.. فيها "المأساة" وهى آلامك وعذابك وإحساسك بفقدان الدور والاعتبار وفيها "الملهاة" بكل أسف وهو موقف هذا الصهر العابث منك.. وإن كان عبثه ساديا لأنه يؤذى النفس والشعور، وأشد الداء ما يؤلم النفس قبل الجسد.. والحق إننى أقدر آلامك النفسية وأفهم رغبتك العادلة فى أن تجد لحياتك معنى، لكنى قد أهمس فى أذنك ببعض ملاحظات على هامش رسالتك لعلك تتقبلها بصدر رحب: إن مشكلتك يا سيدى هى نموذج لمشاكل كثيرين فى الحياة لا يتقبلون نفسيا بسهولة ما تأتى به الأقدار.. أو ما يقتضيه الوصول إلى مرحلة معينة من العمر، وهؤلاء ينسون حقيقة أساسية من حقائق الحياة.. هى أن لكل رحلة بداية ونهاية.. وأن لكل إنسان فى حياته العملية منحنى صاعدا وهابطا إلى

النهاية المحتومة وهى اعتزال المنصب أو الوظيفة المرموقة ذات يوم، والعقلاء من يؤهلون أنفسهم نفسيا لتقبل هذه الحقيقة لكن بعضنا تعميه الدنيا أحيانا عن إدراك هذه الحقيقية الأساسية ويتصرفون وهم فى مواقع العمل والنفوذ، وكأن كل شيء سوف يدوم إلى الأبد فيتعجرفون أو يضعون ألقابهم وأسماء مناصبهم فوق رؤوسهم كأنها تيجان لا تهوى.. ولابد أن ينتج عن هذا التصور غير السليم أخطاء فى السلوك أبسطها خطأ الترفع واعتبار الإنسان لنفسه نوعا مميزا من البشر! وهذا هو أبشع أخطاء التفكير البشري!.. فالناس جميعا أمام الله سواسية والتكبر أصلا خطيئة ترقى فى رأيى المتواضع إلى ما يشبه الكفر، لأنه اجتراء على مقام الخالق.. المتكبر وحده الذى يحق له ذلك أما من عداه فدلنى على شيء واحد يعطى للإنسان الضعيف الحق فى أن يتعالى على غيره وأن يتصور أنه أفضل منه.. المال؟ إن المال يشترك فيه الشرفاء.. وتجار المخدرات والمهربون والمرتشون والقوادون فأى فضل فيه لأحد؟ المنصب؟ لو دام لأحد لما وصل إلى أحد غيره وهذا شيء طبيعى.. الصحة؟ إن أحقر فيروس فى العالم وهو فيروس الانفلونزا يمكن أن يطرح إنسانًا فى قوة هرقل فى الفراش بلا حراك لمدة ١٠ أو ٢٠ يوما، يحسد خلالها القطة على صحتها! شجرة العائلة الكريمة؟ كلكم لأدم وآدم من تراب! فأى فضل لتراب يداس بالأقدام؟ العلم والتفوق العلمى والموهبة مثلا؟ أن أعظم العلماء

والموهوبين الحقيقيين هم أكثر الناس تواضعا لأن الإنسان كلما ازداد "علما" ازاد "معرفة" بحقائق الحياة.. فإذا اختصه الله بها فليكن أكثر الناس شكرا له وعرفانا.. ماذا يبقى إذن للتفاضل بين الناس؟ يبقى خلقه ودينه وحبه للآخرين وحبهم له ولشخصه هو لا لمنصبه، وهذه كلها لا فضل فيها لمنصب ولا لنفوذ.. فإذا تغيرت الدنيا لم يعدم الإنسان من يقدر فيه خلقه وحسن تعامله مع الآخرين وبالتالى لا يفقد الإنسان أهميته فى أسرته ولا مجتمعه الصغير حين يفقد منصبه!

إننى أرجوا ألا تفهم من هذا الكلام أننى أتهمك بشىء أو ألومك على شىء.. لكننا اتفقنا منذ البداية ـ أقصد أصدقاء بريد الجمعة وأنا ـ على أن ما ينشر فى هذا الباب من رسائل هو للاعتبار ولإثراء خبرتنا بالحياة ومحاولة الاستفادة بدروس التجربة التى تعرضها الرسائل ولقد كان من تداعى المعانى أن أشير إلى ما أشرت إليه.

أما صهرك العابث فإنى لا أرى مبررا لاحتمال كل هذا العذاب معه وأفضل مواجهته بما يصنع وبما يقول.. كما أفضل أن تصارح إخوتك وأهلك عند توسطهم له عندك.. بما يفعل وبما يؤذى مشاعرك، ولا أرى أبدا مبررا للخجل فى هذا المجال فما يجرى إنما يسئ إليه هو ولا يسئ إليك، وهو ينبغى أن يخجل مما يفعل وليس أنت. لذلك أنصحك أن تكون حازما معه بلا عدوان عليه إذا عاد للإساءة إليك.. فإذا لم يكف أذاه عنك فلتقاطعه أنت وحدك.. لكنه من

الإنسانية أن تسمح لزوجتك وهى ابنته الوحيدة بزيارته وحدها من حين إلى آخر.

وأما مشكلة العمل فإنى لو تلقيت استجابة مناسبة لك فسوف أبعث بها إليك سعيدا فى مدينتك الزقازيق.. وإن كنت أفضل أن تستغل طاقتك فى أى مجال للخدمة العامة إلى أن يأتى العمل وبعد أن تجده أيضا إن شاء الله.. وبهذه المناسبة لقد كنت على وشك أن ألومك على قبولك العمل مع "انفتاحي" مظهرى لا يحتاج إلى جهودك فعلا وإنما يحتاج إلى "شاسيه" فخم المنظر يسير وراءه ليرضى به عقده أمام أقرانه من المعلمين خاصة إذا كان هذا "الشاسيه" من حملة الألقاب السابقة، لكنى تذكرت أنك لم تحتمل ذلك وتركت هذا العمل فشكرت لك ذلك وحمدته لك!.



واحة الكتب

لأن مثل حكايتى قد تحدث لآخرين فى مجتمع يبدو أحيانا قاسيا لا يرحم.. فإنى أناشدك أن تنشر قصتى هذه وأن تقول رأيك فيها صادقا ليس لى وحدى وإنما لكل من يتعرض لأن يكون فى مثل موقفى.. وحكايتى يا سيدى بدأت منذ ١٠ سنوات وكنت فى ذلك الوقت فى التاسعة والعشرين من عمرى وكنت قد أنهيت خدمتى العسكرية وبعد الحرب وبعد أن أمضيت من حياتى ٦ سنوات كاملة فى الجبهة وسط النار والبارود أو فى الصحراء القاحلة، و كنت قد أنهيت تعليمى الجامعى وتخرجت فى كلية الآداب وعدت بعد انتهاء الخدمة إلى عملى و كشاب فى مثل ظروفى .. فكرت فى البحث عن فتاة الأحلام فقد أمضيت ٦ سنوات فى النار لم أثق ليلة فى أن النهار سوف يطلع على .. وكنت فى حاجه إلى الراحة بعد العناء وإلى البيت الدافئ بعد صقيع الليالى الباردة فى الملاجئ أو العراء .. ووجدتها بأسرع مما تخيلت.. ألتقيت بها فى عملى وأحببتها بكل ما فى من نبض.. وأصبحت خلال وقت قصير شيئا يسرى فى دمى وعروقى.. وصدقنى إن اندفاعى فى حبها لم يكن بلا مبرر فلقد كانت ملاكا بكل معنى الكلمة..

وتزوجتها سريعا فأعطتنى الحب والحنان والدفء العائلى

وعشنا فى شقة بالهرم ندبر حياتنا معا.. بحب وحنان وتفاهم نخرج إلى العمل صباحا معا فنطارد التاكسيات إلى أن نجد مكانا فى أحدها أو نتشعلق بالاتوبيس إذا يئسنا من سيارات الأجرة. ندخل العمل فتتجه هى إلى مكتبها، وأنا الى مكتبى وتظل فى وجدانى سواء اكانت قريبة منى أم بعيدة عنى، وعند الظهر نغادر العمل معًا فنتجول فى شوارع وسط المدينة.. نأكل السندويتشات.. فى شارع سليمان وندخل السينما.. أو نتغدى فى محلات الكشرى.. ونمشى فى شوارع المدينة فنشترى كتابا أو مجلة وقد نجلس معا على المقهى فى وسط المدينة نقرأ الصحف حتى نمل فننهض لنركب الأتوبيس من ميدان التحرير.. كنا معا فى كل لحظة.. وحين جاء الأبناء تضاعفت سعادتنا ولا أنسى يوم ولادتها الأولى.. ولا خوفى عليها من الولادة.. كان المولود الأول طفلا عمره الآن ٨ سنوات وكان فرحتنا الأولى.. وكان سعادتنا.. وكم سهرنا بجواره نلاعبه ونداعبه.. ونفكر فى المستقبل.. ثم جاءت الطفلة بعد ٣ سنوات من الأول.. فاكتملت سعادتنا.. ولم تكن من قبل ناقصة.. لكن تستطيع أن تقول إنها زادت كمالاً على كمال! وابتسمت لنا الدنيا أكثر وأكثر فسافرنا معًا عام ١٩٧٧ للعمل معا فى إحدى الدول العربية.. وعرفنا إلى جانب الحب الوفير والحنان الغامر.. شيئا لم نكن نعرفه من قبل وهو أن نجد فى إيدينا نقودا كثيرة تفيض كثيرا عما نحتاج إليه لنفقات الشهر ولشراء الملابس فزادها

ذلك حنانا على حنان.. ورضا على رضا.. وعطاء على عطاء، والحق أنها نوع من البشر يتميز بقدرته على الحنان، وصدقنى أن هذا ليس رأيى وحدى لكنه كان رأى كل من رآها وعاشرها فى الغربة أو مصر، ولقد كان زملائى فى الغربة يحسدوننا على حبنا المتجدد كل يوم، وعلى الوئام الشديد والتفاهم العميق بيننا وفى العام الخامس من زواجنا حملت زوجتى فى طفلنا الثالث، ولا أعرف لماذا أحسست بعدم الارتياح لمقدمه، أما هى فكانت سعيدة به وتقول إنه سيكون "ابن عز" لأنه الوحيد من أبنائنا الذى سيولد فى ظروف حسنة.. فلدينا مال نستطيع أن نوفر ظروف ولادة مريحة.. وأن نشترى له ملابس غالية.. ولعبا جيدة وسريرا فاخـرا.. وكلها أشياء لم تتوفر لابنى وابنتى عند مولدهما.. وكنت أجـاريها فى أحلامها لكن شيئا ما فى صدرى لم يكن متجاوبا معها فيها.

ولم تمض أيام حتى لاحظت أنها متعبة وأن حملها قد أرهق صحتها فعرضتها على الطبيب.. الذى أحالها إلى طبيب آخر وأحالها الطبيب الآخر إلى طبيب ثالث.. وجاءت كلمة الطبيب الأخير كالمطرقة الثقيلة فوق رأسى.. إنها مريضة بالمرض اللعين! يا إلهى هذه الرقيقة.. الجميلة.. التى تحب الناس والحياة والخير والجمال! ولن أطيل عليك فلقد جاء موعد الولادة وضعت مولودها واختاره الله عقب ولادته، وبدأت أنا وهى رحلة شقاء جديدة.. طفت بها على الأطباء.. ولم

أسمع عن سبيل للعلاج لم أحاوله وأجريت لها جراحة نجحت بحمد الله.. لكن المرض كان قد انتشر فى أماكن أخرى.. ولم أيأس فواصلت الكفاح وهى معى صابرة باسمة تشع حنانا وعطفا على فى كل لحظة... فى شدة الألم كنت أحس بحنانها وعطفها على وكأنى أنا المريض وهى ممرضتى.. حين كنا نحرز بعض النجاح كنت أطير فرحا وكنا نسعد سعادة غامرة كأننا فى الأيام الخالية وكنا نقوم برحلات كلما استطاعت تحملها.. ونسهر خارج المنزل ونتفسح، وعشنا عامين ونصف العام على هذه الحال.. سعيدين رغم تعاستنا.. نعيش معا فى انتظار المجهول وكانت هى تترقبه وتنتظره بلا سخط.. بلا ضيق، وذات يوم زرنا الطبيب فاكتشفنا أن وزنها قد نقص ٥ كيلو جرامات دفعة واحدة خلال أيام، وتوالت الفصول الحزينة بعد ذلك سريعا حتى صحوت يوما فلم أجدها كأنها طيف جميل رأيته فى أحلامى وتبدد حين أفقت منه.

وأنا الآن يا صديقى وحدى..

أراها.. وأتنفس الهواء الذى كانت تتنفسه.. وأشم راحتها فى كل مكان من الشقة وقد أخذ أهل زوجتى أطفالى لديهم فى مدينتهم البعيدة عن القاهرة وأنا شارد ضائع.. حزين.. ومستقبل أطفالى فى خطر لأن ثمة تفكيرا لدى أسرة زوجتى فى الاحتفاظ بالأطفال بحجة

أنى غير قادر على تربيتهم بينما هم قد التحقوا بمدرسة لغات فى القاهرة، فقل لى بربك ماذا أفعل.. ولماذا تذبل الزهور فى الربيع ثم تتركنا للأحزان والدموع..

ولماذا أنا وحدى الذى أواجه هذا المصير...؟



ماذا أقول لكاتب هذه الرسالة أو ماذا على الأصح تجدى الكلمات أمام لغز الحياة؟ لكن إذا كانت ثمة ضرورة للكلام فإنى أقول لك يا صديقى إن هذه هى الحياة.. لا جديد فيها.. ولا نهاية له وأن الحياة كانت وسوف تظل إلى الأبد فراقا وتلاقيا.. ولا نهاية لكل منهما، وأنه كما يقول الشاعر: "ترقب زوالا إذا قيل تم" فلابد فيما يبدو غالبا من هذا الشئ الناقص.. لعل ذلك هو ما يدفعنا لا شعوريا لأن نتوجس خيفة فى أعماقنا إذا أسرفنا فى السعادة فى بعض الأحيان لكن العاقل من يتقبل حقائق الحياة بواقعية وصبر ويتفهمها، والعاقل من يلتمس لنفسه السلوى والعزاء فى صورة الحياة الأخرى ولو فى الذكريات الجميلة وطيف الأيام السعيدة.. فهكذا يفعل الكثيرون من جرحى الحياة.. والحياة كالحرب يا صديقى لها أيضا جرحى ومصابون وجراحها أضعاف أضعاف جرحى الحروب ولقد نجوت من أهوال

الحرب.. بإرادة الله، لكن أهوال الحياة لا ينجو منها أحد يا صديقى فاصبر واحتسب.. واستعن بالصبر والصلاة على ما تلاقيه وتقبل الأمر بواقعية رغم إيلامه ولا تسل أبدا لم؟.. أو لماذا أنا وحدي؟ فلم تكن وحدك.. ثم إن تساؤلك هذا جرم واجتراء على مقام من لا يسأل عما يفعل.. وحشاك أن تكون كذلك ولعل كثيرين من المعذبين يغبطونك على ظروفك وأنت شاب وفى مقدورك أن تبدأ حياتك من جديد.. ولن أنصحك بشئ محدد الآن لأنك أدرى بظروفك.. لكنى أنصحك فقط بأن تستعيد صلابتك.. وأن تجتاز هذه المحنة كما اجتزت من قبل الأيام العصيبة تحت النار والبارود.. أم هل نسيت أيها المقاتل؟

كتب للمؤلف

١ - أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٢ - يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الثالثة ٢٠٠٤
٣ - هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٤ - صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة ٢٠٠١
٥ - نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٦ - العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٧ - صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٨ - افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٩ - اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
١٠ - أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
١١ - أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
١٢ - رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٣ - أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٤ - لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
١٥ - نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠

١٦- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٠
١٧- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٨- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٩- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٠- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢١- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٢- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الرابعة ٢٠٠٤
٢٣- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٤- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢٥- أهلاً.. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٦- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٧- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٢٨- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١
٢٩- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١

* كتب للمؤلف من إصدارات "الدار المصرية اللبنانية"

٣٠- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة السادسة ٢٠٠٣
٣١- وقت للسعادة وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة ٢٠٠٣
٣٢- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٢
٣٣- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٣٤- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٣٥- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
٣٦- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٣٧- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٣
٣٨- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الرباعة ٢٠٠٣
٣٩- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٣
٤٠- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٢
٤١- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٤٢- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٢
٤٣- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٤- هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٥- حكايات شارعنا	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣

٤٦- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٧- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٨- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٩- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٤
٥٠- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٤
٥١- سائح فى دنيا الله	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٤
٥٢- أرض الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٦
٥٣- نافذة على الجحيم	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٦
٥٤- بعد مغيب القمر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٦
٥٥- فتاة من قاع المدينة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٦

المحتويات

مقدمــة ٧
شىء من الاحترام ٩
إحساس غريب ١٧
شىء من الاهتمام ٢٥
فى منتصف الطريق ٣١
الأستاذة ٣٩
نظرة شك ٤٥
من عالم الصمت ٥٣
مشكلة حساسة ٥٧
فى المنفى ٦٣
طائر الحب والسعادة ٧١
كذاب جدًا ٨١
بعد مغيب القمر ٨٧
انتصار الحياة ٩٣
طرقات على الباب ٩٩
الأيدى الناعمة ١٠٥
فى مفترق الطرق ١١٥
وسط الزحام ١٢١
رحلة المليون ١٣١
أسرة صغيرة ١٤١
وكيلة حجامٍ ١٥١

تاجر شنطة	١٥٥
نقطة ضعف	١٦٧
ظروف خاصة	١٧٥
مشكلة صغيرة	١٨١
أسرة سعيدة	١٨٩
رحلة صيد	١٩٥
حياة لهامعنى	٢٠١
بداية ونهاية	٢١١